الفصل الثالث :

شعراء معاصرون من مصر..

١ - أحمد شوقى

٢ - حافظ إبراهيم

٣ - على الجارم

٤ - عزيز أباظة

٥ - إبراهيم ناجى

٦ - إسماعيل صبرى

٧ - محمود حسن إسماعيل

٨ - صالح جودت

٩ - طاهر أبو فاشا

١٠ - كامل الشناوى

١١ - محمد الأسمر

١٢ - الشيخ عبدالله الشبراوى

١٣ - محمد مصطفى الماحى

١٤ - أحمد فتحي

١ أحمد شوقي

عشر قصائد متنوعة

عجيب أمر هذه الفنانة العظيمة، التى تعرفت عل أمير الشعراء أحمد شوقى، بل وقابلته مرتين. وهو الذى مدحها فى إحدى قصائده !، ومع ذلك لم تشدو بكلماته إلا من بعد رحيله !! . ولاشك أن ذلك كانت له أسبابه فى حينه على الأقل لوجود منافسها الشرس الموسيقار محمد عبدالوهاب داخل عقل وقلب أمير الشعراء.

ونقولها كلمة حق فى شأنه سيدة القصيدةالعربية وأمير الشعراء شوقى: أنه على الرغم من شهرة ذلك الأمير ، فى مجال الشعر والمسرح الشعرى ورغم قيام محمد عبدالوهاب بالترويج لبعض أشعاره، إلا أن ذكراه لا تتجدد فى كل حين.. إلا عندما ينطلق صوت أم كلثوم بقصائده الخالدة.!.

وتعالوا معنا نبدأ الحكاية من أولها.. هذه البداية أثرنا أن تكون على لسان أم كلثوم نفسها.. والتى قالت عن أمير الشعراء: .

«التقيت بأمير الشعراء أحمد شوقى فى أواخر أيامه وكانت أول مرة رأيته فيها فى كلوب «سولت» فى شارع فؤاد القديم بجانب «شكوريل» . وكان معه محمود فهمى النقراشى باشا والدكتور محجوب ثابت، وقد دعانى إلى الغناء فى الفيلا التى كان يسكنها على النيل حاملة اسم «كرمة بن هانئ».. فذهبت مع أبى وأخى وغنيت ليلتها كما لم أغن من قبل ورأيته يتمايل طربًا ولكنه كان يقطع النشوة التى هو فيها فيختفى لدقائق ثم يعود إلينا ساهماً..ولم أكن أدرى لماذا اختفى فهمس أبى فى إذنى : إنه إلهام الشعر يجيئه فيقوم ليدون شيئاً ثم يعود..»

وتأكيداً على ما سبق وذكرناه .. ورغم هذه العلاقة .. فإن ام كلثوم لم تغن له إلا بعد رحيله.. وقالت أم كلثوم عن ذلك «لم أغن له إلا بعد موته عدة قصائد»!.

وبالرجوع إلى سجل ما غنته أم كلثوم عن أحمد شوقى بالذات اتضح لنا أن عدد القصائد التى شدت بها سيدة القصيدة العربية من كلمات أمير الشعراء بلغت عشر قصائد هى بالترتيب : الملك بين يديك فى عام ١٩٣٦ ، وبعد هذا التاريخ بعشر سنوات

غنت لأحمد شوقى ست قصائد هى : ولد الهدى - فى الأرض شر مقاديره من «قصيدة السودان» - ريم على القاع من قصيدة «نهج البردة» - سلوا قلبى - سلوا كئوس الطلا - ثم أتعجل العمر .

وفى عام ١٩٤٩ غنت أم كلثوم «من أى عهد فى القرى تتدفق» من قصيدة «النيل» ، وفى عام ١٩٥٤ غنت له : «بأبى ورحمى الناعمات» .. ثم اختتمت هذه الرحلة مع أمير الشعراء فى عام ١٩٦٩ حين تغنت بقصيدة «إلى عرفات الله» !

***

وللشرف الكبير الذى ناله الموسيقار رياض السنباطى . فقد سمحت له أم كلثوم بأن ينفرد وحده على غير عادتها.. بتلحين كل قصائد أحمد شوقى، وهذا يدل دلالة كبيرة على تميز هذا الفنان العبقرى وتفرده فى تلحين القصائد الصعبة.

ومما لاحظناه بعدمارجعنا إلى مدونات أمير الشعراء سواء فى شوقياته المعلومة أو المجهولة. لمراجعة ومضاهاة كلماته مع ما غنته أم كلثوم .. وجدنا أن هذه المطربة العظيمة ولأول مرة فى تعاملها مع أحد الشعراء المعاصرين لم تلجأ كثيراً إلى تبديل أو تعديل كلمات الأبيات التى كتبها هذا الشاعر، إلا فى حدود ضيقة للغاية ، ولم نلحظها إلا فى أبيات بعينها، وإن كانت قد سمحت لنفسها فى الوقت لنفسه بانتقاء بعض الأبيات واختيار أبيات دون غيرها.. نظراً لطول قصائد أحمد شوقى.. وصعوبة فهم كلمات بعض هذه الأبيات أيضاً.

ونحن نعتذر عن عدم نشر كل القصائد التى غنتها أم كلثوم لأحمد شوقى لسببين رئيسيين هما : أن معظم هذه القصائد طويل إذ يصل فى بعض الأحيان إلى أكثر من ٣٤ بيتاً .. وثانياً لكثرة ما غنته أم كلثوم لشوقى حيث بلغ عدد هذه القصائد عشرة، وإن كنا سنشير فى بداية الحديث عن كل قصيدة إلى بيت أو بيتين إذا لزم الأمر ذلك!

وكما سبق وقلنا .. فقد كانت قصيدة «عيد الدهر» . من أوائل ماغنته أم كلثوم لأحمد شوقى وجاء فى مطلعها:

الملك بين يديك فى إقباله　　عوذت ملكك بالنبى وآله

وقد نشرها أمير الشعراء شوقى فى الجزء الأول من الشوقيات تحت عنوان : « عيد

الدهر وليلة القدر» .. وعدد أبياتها ٥٧ بيتاً . إختارت منهم أم كلثوم ١١ بيتاً فقط .. مع ملاحظة إلتزامها بالترتيب الذى وضعه أمير الشعراء بالنسبة للبيتين الأول والثانى فقط، ثم بعد ذلك أخذت تنتقى منها بقية الأبيات التى غنتها ولحنها رياض السنباطى ، وكذلك اختتمت هذه القصيدة بالبيت الثالث قبل الأخير مما نشره أحمد شوقى والذى تقول فيه كوكب الشرق.

تهيىء بعيدك فى الممالك واسلمى

فى السلم للآلاف من أمثاله

وتعتبر هذه القصيدة ثانى أغنية لأم كلثوم تغنيها تحية للملك فاروق .. وإن كانت تعتبر أول قصيدة فى الترتيب العام لكل أغانيها المعلن عنها .. إذ غنتها بمناسبة توليه سلطاته الدستورية فى عام ١٩٣٦ .

***

وبعد هذا التاريخ بعشر سنوات أى فى عام ١٩٤٦ غنت أم كلثوم لأمير الشعراء شوقى خمس قصائد دفعة واحدة .. وهى دون ترتيب : قصيدة : «ولدالهدى» - والتى نشرها أحمد شوقى فى شوقياته تحت عنوان «الهمزية النبوية» ، وقداختارت منهاكوكب الشرق ٣٤ بيتاً فقط من أصل ١٢٩ بيتاً هى كل أبيات هذه القصيدة.

كما جاء هذا الاختيار ممثلاً لمعظم مقاطع هذه القصيدة الكبيرة إذ اختارت من المقطع الأول ٤ أبيات وهى التى تقول فى مطلعهم:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وسناء

كما أهملت منها ثلاثة أبيات..ومن المقطع الثانى اختارت عشرة أبيات من أصل ٣٩ بيتاً هى عدد أبيات هذا المقطع .. وهى تقول فى مطلع هذا المقطع:

ياخير من جاء الوجود تحية من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا

ومن المقطع الثالث وعدد أبياته ١٧ بيتاً أختارت أم كلثوم ثلاثة أبيات فقط .. قالت فى البيت الأول منه:

يوحى إليك الفوز فى ظلماته متتابعاً تجلى به الظلماء

وأما المقطع الرابع فعدد أبياته ١٩ بيتاً إختارت منه أم كلثوم ١٢ بيتاً فقط.. وفى مطلعه تقول:

بك يابن عبدالله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء

ولم تغن أم كلثوم أبياتاً من المقطعين الخامس والسادس.. وعدد ما بهمامن أبيات بلغ ٢١ بيتاً!، وأما بالنسبة للمقطع السابع فقد اختارت منه أم كلثوم ثلاثة أبيات من أصل ٢١ بيتاً، وقالت فى مطلعه:

يا من له عز الشفاعة وحده وهو المنزه ما له من شفعاء

وأما المقطع الثامن والأخير فقد اختارت منه بيتين من أصل خمسة أبيات.

ومما لاحظناه أثناء إجراء هذه المقابلة ـ بين ماكتبه شوقى وما غنته أم كلثوم ـ أن الأخيرة لم تلتزم فى اختيارها السابق للأبيات، بالترتيب الذى وضعه أحمد شوقى، وفى حقيقة الأمر فإننا لم نشعر فى أية لحظة بوجود أى نوع من القطع أو الإخلال!. حتى وكأننا نتصور أن ما تغنت به أم كلثوم من أبيات أعاد ترتيبها الملحن رياض السنباطى هو ماكتبه أحمد شوقى نفسه ، وتلك هى قمة العبقرية سواء فى الغناء أوالتلحين، كما لاحظنا أن عدم الالتزام بالترتيب العام لأبيات قصائد أحمد شوقى فى كل ماغنته أم كلثوم كان هو السمة الغالبة!!..

***

ثم غنت أم كلثوم فى العام نفسه قصيدة «سلوا قلبى» .. وقد نشرها أحمد شوقى فى ديوانه تحت عنوان ! «ذكرى المولد» ..وبلغ عدد أبياتها ٧١ بيتاً غنت منهم أم كلثوم ٢١ بيتاً فقط.. وهذه القصيدة يقول مطلعها:

سلوا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتاباً

ولقد لاحظنا أن أم كلثوم قد التزمت بالأبيات الستة الأول وفق ترتيب أمير الشعراء شوقى.. أما باقى ما غنته فقد اختارتهم كوكب الشرق اختياراً عشوائياً وفق رغبة الموسيقار رياض السنباطى.

كما غنت أم كلثوم أبياتاً من قصيدة «نهج البردة» والتى بدأتها بقولها:

ريم على القاع بين البان والعلم

أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

إذ أن عدد أبياتها كما جاء فى ديوان الشوقيات ١٩٠ بيتاً .. غنت منها كوكب الشرق ٣٠ بيتاً وهذه القصيدة قد شغلت لطول أبياتها وكثرة عددها ما يقرب من خمسة عشر صفحة من الشوقيات !

والغريب أن أم كلثوم قد التزمت وفق ترتيب هذه الأبيات بالبيت الأول فقط .. ثم بدأت بعد ذلك عملية انتقاء واسعة أسفرت عن اختيارها لبقية الأبيات التى شدت بها!، مع ملاحظة أن هذا الاختيار قد تركز فى الخمسين بيتاً الأولى وهى من الأبيات التى تمثل الجزء الأول من هذه القصيدة الطويلة .!

ليس هذا فقط .. بل ولذكاء أم كلثوم المفرط فقد التزمت كذلك بالبيت الأخير فى هذه القصيدة وفق ترتيب أحمد شوقى وهو البيت الذى قال فيه:

يارب أحسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

***

وجاء الدور على قصيدة «سلوا كئوس الطلا»، وهى من القصائد التى كتبها شوقى خصيصاً لكى تغنيها أم كلثوم ! والتى قالت عنها أم كلثوم فى مذكراتها:

«... وفى صباح اليوم التالى جاءنى من يقول إلحقى يا ست .. شوقى بك أمام الباب الخارجى .. فهرولت لأجده .. كان وجهه مضيئاً بابتسامة طيبة .. وقد دفع إلى بمظروف .. وهو يقول: هذه هدية متواضعة تعبر عن إعجابى!.. إنها من وحيك .. وفتحت المظروف لأجد قصيدة:

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها
واستنجدوا الراح هل مست يداها

وتواصل أم كلثوم قولها فى مذكراتها: ولكنى لم أغن الأغنية فى حياته .. غنيتها بعد موته..»

وقدغيرت فى كلمات البيت الرابع الذى يقول فيه أحمد شوقى:

هيفاء كالبان يلتف النسيم بها وينتهى فيه نحت الوشى عطفاها

إذ لجأت لشاعرها المفضل آنذاك أحمد رامى .. لإتمام هذا التغيير المطلوب .. مستخدماً حرفيته المعهودة فى ذلك .. وقد غير الشطر الثانى فجاء البيت الذى غنته أم كلثوم مغايراً بعضه الشىء لما كتبه شوقى .. وهى التى تقول فيه:

هيفاء كالبان يلتف النسيم بها
ويلتف الطير نحت الوشى عطفاها

وقصيدة «سلوا كئوس الطلا» لم ينشرها شوقى فى ديوانه المعروف بالشوقيات.. بل جمعها من بعده الدارسون .. ووضعوها فيما أسموه «بالشوقيات المجهولة!» وخاصة فى القسم الغنائى من هذه الشوقيات!

كما غنت كوكب الشرق أبياتاً من قصيدة «السودان» والتى تقول فى مطلعها:

وفى الأرض شر مقاديره ... لطيف السماء ورحمانها

* * *

وفى عام ١٩٤٩، أعادت أم كلثوم الروح من جديد لأشعار أمير الشعراء شوقى .. إذ تغنت فى هذا العام بأبيات من قصيدته «النيل» والتى نشرها أمير الشعراء تحت عنوان «أيها النيل»... وعدد أبياتها ٢١ بيتاً فى المقطع الأول. و١٤ فى المقطع الثانى.. و٨١ فى المقطع الثالث، و٣٧ فى المقطع الرابع، أى أن عددها ١٥٣ بيتاً، أما ما غنته أم كلثوم فقد بلغ ٢٤ بيتاً فقط !!!.

ويقول مطلع هذه القصيدة

من أى عهد فى القرى تتدفق ... بأى كفاف المدائن تغدق

وكالعادة فقد اختارت كوكب الشرق ٨ أبيات من المقطع الأول.. ومن المقطع الثالث ٩ أبيات.. ثم اختارت من المقطع الرابع والأخير ٧ أبيات فقط!

***

وفى عام ١٩٥٤ كررت أم كلثوم التجربة مع الشاعر أحمد شوقى.. فغنت له القصيدة قبل الأخيرة فى سلسلة القصائد التى غنتها لشوقى.. والتى تقول فى مطلعها:

بأبى وروحى الناعمات الغيدا ... الباسمات عن اليتيم نضيراً

وهى من القصائد التى لم تسجلها على أسطوانة كالعادة.

وفى الشوقيات نشرها أمير الشعراء تحت عنوان: «تكريم» .. وعدد أبياتها ٣٨ بيتاً فى المقطع الأول و١٢ فى المقطع الثانى وأما ما غنته أم كلثوم فقد بلغ ١٦ بيتاً فقط .. وقد اختارتها من المقطع الأول..

***

وأخيراً وفى عام ١٩٦٥ .. اختتمت أم كلثوم غناء شوقيات أمير الشعراء بالشدو بقصيدته المشهورة: «إلى عرفات الله» والتى تقول فيها :

إلـى عـرفـات الـلـه يـا خـيـر زائـر عـلـيـك سـلام الـلـه فـى عـرفـات

وعددأبياتها ٣٤ فى المقطع الأول و١٨ فى الثانى و١١ بيتاً فى الثالث.. وأما أم كلثوم فقد غنت فقط ٢٥ بيتًا اختارتها جميعًا من المقاطع الثلاثة.. وقد غيرت فى كلمات البيت الذى قال فيه شوقى:

إذا زرت يـا مـولاى قـبـر مـحـمـد

وقـبـلـت مـثـوى الأعـظـم الـعـطـرات

وقد بدلت فى الشطر الأول حيث أصبح يقول:

إذا زرت بـعـد الـبـيـت قـبـر مـحـمـد

وقـبـلـت مـثـوى الأعـظـم الـعـطـرات

والجميل فى هذه القصيدة . أن كوكب الشرق قد التزمت بالأبيات السبعة الأخيرة من القصيدة التى كتبها شوقى وفق ترتيبه كختام لما تغنت به.

***

ورغم طول هذه الرحلة على ما بها من شغف ومتعة.. إلا أننا فضلنا ألا يزيد هذا التطويل عن الحد المعقول .. ورأينا أن خير ختام .. هو أن نذكّر النفس بصاحب هذه الكلمات .. من خلال ما كتبه عن نفسه وما نقله عنه المؤرخون.

فقد ولد شاعرنا الكبير أحمد شوقى وفق ما أكده الدكتور شوقى ضيف فى ١٨٦٩ .. بالقاهرة.. إلا أن هناك من المؤرخين الذين اختلفوا فى تاريخ ميلاد أمير الشعراء.. حيث قالوا غير ذلك..

والدكتور ماهر حسن فهمى يوضح لنا سبب هذا الخلاف بقوله: اختلف مؤرخو الأدب فى مولد شوقى، فجلهم ذكر أن ميلاده كان عام ١٨٦٨م وجاء ذلك نقلاً عن الشوقيات القديمة حين ذكر شوقى فى مقدمتها أنه يحبو إلى الثلاثين، ولما كان تاريخ طبعها هو ١٨٩٨م ، فإن تاريخ ميلاده على هذا الأساس المذكور يكون صحيحاً..[ويقصد هنا عام ١٨٧٠][1] .

(١) أحمد شوقى - د. ماهر حسن فهمى.

ولكن كاتبًا واحدًا عنى نفسه بتحقيق تاريخ صدور الشوقيات القديمة وهو الدكتور محمد صبرى، فوجد أن التقاريظ المذكورة آخر الديوان تؤرخ عام ١٣١٧هـ وهو يقابل ١٩٠٠ م أو النصف الأول منها على وجه الدقة، ورغم ذلك تابع غيره من الكتاب وذكر أن تاريخ ميلاد شوقى هو عام ١٨٦٨م.

***

وتعود أصول شوقى العائلية إلى الكردية .. وقد أسماه والده أحمد شوقى تيمنًا باسم جده.. وعلى الرغم من أنه نشأ نشأة أرستقراطية إلا أن مولده جاء فى أحد أحياء القاهرة الشعبية وهى حى الحنفى القريب من العتبة، كما التحق فى بداية حياته بمكتب الشيخ صالح .. ثم انتقل منه إلى المدرسة الخديوية ومنها إلى مدرسة الحقوق (قسم الترجمة) ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والآداب فى عام ١٨٨٧ .. وعاد من هذه البعثة فى عام ١٨٩١.

ثم نفى إلى إسبانيا لبعض مواقفه الوطنية من السلطان حسين ومن الإنجليز فى عام ١٩١٥ وظل بهذا المنفى حتى عام ١٩١٩، تفرغ أحمد شوقى لكتابة الشعر الذى أتقنه منذ نعومة أظفاره وقد كتب فى كل المجالات.. حتى أن البعض ليعتبر أشعاره فى الوطنية مثالا يحتذى به، وقد ترك وراءه عشرات القصائد طبعت لأول مرة فى ديوان سمى بالشوقيات، وهذا بخلاف ما كتبه من أشعار غنائية اختص بها صديق عمره الموسيقار محمد عبد الوهاب.. والتى أضاف إليها ألحانه العذبة.

٢ حافظ إبراهيم
ومصر تتحدث عن نفسها

على الرغم من أن سيدة القصيدة العربية أم كلثوم قد تغنت بقصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم في عام ١٩٥١، والتي تقول في مطلعها.. «وقف الخلق ينظرون جميعاً».. إلا أن هذه القصيدة قد ارتبطت بشدة بأهم حدث سياسي وقع لمصر خلال القرن العشرين. ألا وهو قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

ويبدو أن اختيار أم كلثوم لهذه الكلمات بالذات لم يأت اعتباطاً أو تم بشكل عشوائي، بل هداها تفكيرها وشعورها الوطني المرهف إلى أن هناك شيء هام وخطير في الأفق، وربما يدبر له في الخفاء! خاصة بعد الأحداث الدامية في حرب فلسطين والتي نشبت في عام ١٩٤٨ وما لحق بمصر والعرب من هزيمة عسكرية أمام عصابات اليهود!

في هذا الوقت العصيب الذي كانت تمر فيه مصر بمرحلة تاريخية هامة وخطيرة.. شدت أم كلثوم بكلمات حافظ إبراهيم الذي يتغنى فيها بمصر وعظمتها وتاريخها الطويل والعريق، رغم ما في هذه الكلمات من تحريض صريح على الثورة واستخدام القوة، فقد سمحت سلطات الحكومة الملكية آنذاك بإذاعتها.. ويبدو أنهم لم يفطنوا إلى مغزاها إلا في وقت متأخر!

وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو في عام ١٩٥٢، اتخذ المسئولون عن الإعلام في مجلس قيادة الثورة من كلمات هذه القصيدة سلاح إعلامي خطير للترويج لها ولأحداثها. ولكسب المزيد من المؤيدين، إذ ظلت إذاعة القاهرة من بعد الاستيلاء عليها ومنذ اللحظة الأولى لإعلان بيان الثورة الأول، تواصل إذاعة قصيدة حافظ إبراهيم بصوت أم كلثوم، مع كل بيان ثوري يذيعه أحد الضباط!

ولحسن الحظ فقد فاز الموسيقار الكبير رياض السنباطي بشرف تلحين هذه القصيدة.. وقد أبدع فيها إبداعاً لم يقل عن إبداعاته الموسيقية السابقة.

ولأم كلثوم ذكريات جميلة سجلتها في أوراقها الخاصة عن هذه القصيدة وعن شاعرها حافظ إبراهيم، ومما قالته عن ذلك: «مرة طلبوا مني أغنية وطنية.. وقالوا لي:

كلفنى من تشائين من شعراء الأغانى لينظم قصيدة فى أسرع وقت لتغنيها فى أقرب فرصة، فلما عدت إلى البيت تذكرت أننى أحفظ لشاعر النيل « حافظ إبراهيم»، قصائد رائعة وعكفت على ديوانه .. وانتقيت قصيدة من ديوانه ورحت أختار أبياتاً أغنيها من بين أبياتها العديدة، وقبل أن أنام وفى الرابعة صباحاً .. كنت أدندن باللحن لبيته الرائع :

أنـــا إن قـــدر الإلـــه ممـــاتـــى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

وعندما وقفت - والكلام لا يزال لأم كلثوم- أغنى القصيدة أحسست أننى وفيت ديناً فى عنقى لشاعر لم أره ولكن من حقه علىّ أن أحمل رائعة من روائعه إلى الجماهير العربية.

***

وبالفعل وفى عام ١٩٥١ غنت سيدة ا لقصيدة العربية: قصيدة «مصر تتحدث عن نفسها» أمام الإذاعة ولم تسجلها على اسطوانات كالمعتاد، بل ظل التسجيل الوحيد لهذه القصيدة موجوداً بمحطة الإذاعة المصرية، حبيس الأشرطة حيث لم تذع إلا مرات بعينها.. حتى قيام الثورة فى عام ١٩٥٢، عندما ظلت الإذاعة تبثها على كل موجاتها بين الحين والحين!

وتقول كلمات ما غنته أم كلثوم لحافظ إبراهيم:

وقف الخلق ينظرون جميعًا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام فى سالف الدهر كفونى الكلام عند التحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ودراته فرائد عقدى
إن مجدى فى الأوليات عريق من له مثل أولياتى ومجدى
أنا إن قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رمانى رام وراح سليمًا من قديم عناية الله جندى
كم بغت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى
إننى حرة كسرت قيودى رغم أنف العدا وقطعت قيدى
أترانى وقد طويت حياتى فى مراس لم أبلغ اليوم رشدى
أمن العدل أنهم يردون الماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الأ سد منهم وأن تقيد أسدى

نظر الله لى فارشد أبنا ... نى فشدوا إلى العلا أى شد
إنما الحق قوة من قوى الديان ... أمضى من كل أبيض وهندى
قد وعدت العلا بكل أبى ... من رجالى فانجزوا اليوم وعدى
وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق ... فالعلم وحده ليس يجدى
نحن نجتاز موقفًا نعثر الأرا ... ء فيه وعثرة الرأى تردى
فقفوا فيه وقفة حزم وارموا ... جانبيه بعزمة المستعد

***

وعندما رجعنا إلى ديوان حافظ إبراهيم، والذى صدر فى جزئين فى عام ١٩٢٧ وجدنا أن شاعرنا الراحل قد نشر هذه القصيدة تحت عنوان «مصر» وقد ألقاها من قبل أن ينشرها فى هذا الديوان فى حفل عام أقيم تكريمًا للمرحوم عدلى باشا يكن بعد عودته من أوروبا مقاطعًا المفاوضات مع الإنجليز.. ومستقيلاً من رئاسة الوزارة.. كما نشرت هذه القصيدة لأول مرة فى الصحف فى عام ١٩٢١[١].

كما اتضح لنا كذلك من خلال الاطلاع على الديوان نفسه أن عدد أبيات قصيدة «مصر» لحافظ إبراهيم والتى تغنت بها أم كلثوم تحت عنوان: «مصر تتحدث عن نفسها» هو ٥٧ بيتًا.. فى حين غنت منهم كوكب الشرق ١٧ بيتًا فقط، وهى الأبيات السالف نشرها فى هذه الأوراق.

وقد اختارت أم كلثوم من هذه القصيدة وفق ترتيب حافظ إبراهيم أول ثلاثة أبيات، ثم أهملت بعد ذلك ٢٢ بيتًا!. ثم عادت واختارت بعد ذلك البيت الرابع فى ترتيب ما تغنت به والذى يقول مطلعه:

إن مجدى فى الأوليات عريق..

ثم عادت كوكب الشرق واختارت الأبيات أرقام ١١، ١٢، ١٣، ١٤ من القصيدة وفق ترتيب الشاعر.. كما اختارت كذلك البيت رقم ٣٠ والذى يقول مطلعه.

أترانى وقد طويت حياتى..

ولم تختر البيت الواحد والثلاثين وفق ترتيب القصيدة الأصلية والذى قال فيه حافظ إبراهيم:

---

(١) من هامش الجزء الثانى من ديوان حافظ إبراهيم المنشور فى عام ١٩٢٧.

أى شعب أحق منى بعيش وارف الظل أخضر اللون رغد

ثم عادت واختارت من القصيدة البيت الثانى والثلاثين والذى تقول فى مطلعه:

أمن العدل أنهم يريدون الماء....

وكذلك اختارت البيت الثالث والثلاثين الذى يقول مطلعه:

أمن الحق أنهم يطلقون الأسد...

كما أهملت البيت الرابع والثلاثين الذى قال فيه الشاعر:

نصف قرن إلا قليلاً أعانى مايعانى هوانه كل عبد

واختارت بعد ذلك البيت الخامس والثلاثين والذى يقول مطلعه:

نظر الله لى فارشد أبنائى.....

وكذلك البيت السادس والثلاثين والذى تقول فيه :

إنما الحق قوة من قوى الإيمان..

وأيضاً البيت السابع والثلاثين الذى يقول مطلعه:

قد وعدت العلا بكل أبى....

وأما البيت الثامن والثلاثين الذى يقول فيه حافظ إبراهيم:

أمهروها بالروح فهى عروس تسنا المهر من عروض ونقد

فلم تختره أم كلثوم وكذلك البيت التاسع والثلاثين الذى قال فيه الشاعر:

وردوا بى مناهل العز حتى يخطب النجم فى المجرة ودى

إلا أنها اختارت البيت رقم ٤٠ والذى تقول فى مطلعه:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق.....

ثم أهملت الأبيات من ٤١ إلى ٤٨ ... واختارت البيت التاسع والأربعين الذى تقول فى مطلعه: نحن نجتاز موقفاً تعثر الآراء..

كما اختارت البيت رقم ٥٣ من القصيدة نفسها والذى قالت فيه كختام لما تغنت به:

فتنوا فيه وقفة حزم وارموا جانبيه بعزيمة المستعد

وبذلك فقد أهملت الأبيات من ٥٠ حتى ٥٢ ..!!

***

ولصاحب هذه الكلمات المجيدة.. سيرة عطرة أشار إليها معظم النقاد والمؤرخين نظراً لدوره ومكانته فى عالم الشعر وعالم الأدب العربى بشكل عام، ونحن نقتطف من هذه

السيرة بعض ملامحها من أجل أن تُستكمل لدينا ولديكم الصورة بكل تفاصيلها من حيث ما أراد الشاعر نفسه..

فقد ولد الشاعر حافظ إبراهيم فى قرية ديروط بصعيد مصر.. على ضفاف النيل .. ولم يعرف تاريخ ميلاده وإن كانوا قد سنوه وكما يقول الشاعر صالح جودت فى كتابه «ملوك وصعاليك».. فقد روا له أنه ولد فى يوم ٤ فبراير عام ١٨٧٢.. وقد لمعت مواهبه منذ صباه.. كما مارس المحاماة و هو دون العشرين بكثير، ولكن نزعته الوطنية حببته فى الفروسية، فالتحق بالمدرسة الحربية.

وسرعان ما أصبح الشاعر محمد حافظ إبراهيم فى طليعة الضباط الأحرار وكان عددهم ثمانية عشرة ضابطاً أرادوا أن يثبوا على الاستعمار الإنجليزى وأعوانه فى السودان فتزعموا ثورة السودان ، وأيدهم الخديوى عباس فى السر دون الجهر، ولما فشلت هذه الثورة خذلهم الخديوى وأحيل حافظ إلى الاستيداع ثم المعاش .

كما يؤكد أنور الجندى فى كتابه «عن أعلام الفكر والأدب» أن حافظ إبراهيم عاش حياة أعزباً منطوياً على نفسه منذ عودته من السودان، كما ظل على هذه الحالة النفسية الصعبة قرابة عشرين عاماً فى دار الكتب.

وقد نشأ فى بيئة شعبية ومات أبوه صغيراً.. كما اتصل هذا الشاعر الوطنى الكبير برجلين كانا من كبار رجال عصره وهما محمد عبده وسعد زغلول.

واستمرت صلته بالشيخ محمد عبده طويلاً .. وقد آثر عن الشيخ محمد عبده قوله : «إننى صحبت حافظ أربعين عاماً فلم أستطع أن أهديه ولم يستطع أن يضلنى»!

مات حافظ إبراهيم يوم ٢١ يوليه على ١٩٣٢ . وله مكانة كبيرة فى حياتنا الأدبية..إذ اتصل آنذاك بأعلام الشعر فى عصره من أمثال شوقى ومطران وآخرين... فقد كانت مجالس الأدب فى الجيل الذاهب لاتذكر اسم حافظ إلامقترنا بشوقى، ولايذكر اسم شوقى إلا مقترناً بحافظ حتى كأنهما توأمان!

***

ويرى العديد من النقاد والمؤرخين أن حافظ إبراهيم قد بدأ حياته الأدبية مقلداً لشاعر الجيل السابق محمود سامى البارودى، شاعر السيف والقلم، وقد أمعن فى تقليده حتى شاء أن يكون خليفته رائداً للسيف والقلم، ولعله تطلع إلى أن يبلغ ما بلغه البارودى وزيراً للحربية ثم رئيساً للوزارة، حين هجر المحاماة وداخل المدرسة الحربية.

وقد عُرف حافظ إبراهيم وسط كوكبة كبيرة من شعراء مصر ..باسم شاعر الوطنية.. لما كانت فى حياته من مواقف عبر عنها بصدق من خلال أشعاره التى لن تموت أبداً!.

٣ علي الجارم

وتجربة ناجحة للملحن هاو!

لا أعرف بالضبط من صاحب هذا الاختيار الموفق، لكلمات شاعرنا الكبير على الجارم، لكى تشدو بها أم كلثوم؟! فهل يا ترى يرجع الفضل فى ذلك الاختيار إلى الملحن المغمور آنذاك الدكتور أحمد صبرى النجريدى .. الذى لعب دوراً رئيسيًا فى إتقان أم كلثوم لغناء القصائد منذ بداية رحلتها الفنية مع مطلع العشرينات، أم أن ذلك الفضل يعود لأم كلثوم نفسها التى كانت قد أقبلت فى تلك الفترة على غناء هذه النوعية المتميزة من كلمات شعراء مصر فى العصر الحديث؟!.. وذلك تقليداً لأستاذها الأول فى الغناء الشيخ أبوالعلا محمد.

ومهما كان هذا المتسبب فى هذا الاختيار، فإن انضمام الشاعر المصرى الكبير على الجارم إلى كوكبة الشعراء الذين تغنت بكلماتهم سيدة القصيدة العربية أم كلثوم، قد زان الاثنين .. الشاعر والمطربة.. ويبدو إن جرأة أم كلثوم فى اختيارها لهذه الكلمات التى سطرها الشاعر على الجارم ضمن إحدى قصائده، وفى هذا الوقت المبكر من مشوار حياتها قد ساهم كثيراً فى استمرارها بقوة فوق هذا الطريق الصعب الذى لم يرتده غيرها من المطربين إلا لفترات محددة فقط!

ذلك لأن على الجارم .. كان من أوائل الشعراء المصريين المعاصرين الذين تعاملت مع كلماتهم بذكاء شديد أم كلثوم ..، وقد غنت له عدة أبيات فقط من قصيدة طويلة فى عام ١٩٢٦ .. وبألحان الملحن الطنطاوى الهاوى آنذاك الدكتور صبرى النجريدى، وقد سجلت هذه القصيدة فى العام نفسه على أسطوانة جرامفون.

وتقول كلمات هذه القصيدة التى اختارت عنوانها من كلمات البيت الأول: «ما لى فتنت:

ما لي فتنت بلحظك الفتاك ... وسلوت كل ملبحة إلاك
يسراك قد ملكت زمام صبابتي ... ومضلتي وهدايي في يمناك
فإذا وصلت فكل شيء باسم ... وإذا هجرت فكل شيء باك
هذا دمي في وجنتيك عرفته ... لا تستطيع جحوده عيناك

لو لم أخف حر الهوى ولهيبه ... لجعلت بين جوانحي مثواك
إني أغار من الكئوس فجنبني ... كأس المدامة أن تقبل فاك
لك من شبابك أو دلالك نشوة ... سحر الأنام بفعلها عطفاك

***

وقد نشر الشاعر الراحل على الجارم هذه الأبيات ضمن قصيدته الموجودة بديوانه المنشور فى عام ١٩٣٨ .. والذى صدر عن مطبعة المعارف ومكتبها فى مصر .. ومن قبل أن ينشرها فى هذا الديوان ألقها فى حفل أدبى أقيم فى عام ١٩١٦ .

وقداختارت أم كلثوم الكلمات السابقة لكى تغنيها حين نشرت هذه القصيدة فى الصحف آنذاك .. وعنوان القصيدة التى اختارت منها كوكب الشرق هذه الكلمات هو «الحب والحرب» .. أما عدد أبياتها الكلى فبلغ ٣٩ بيتًا .. مع إن كوكب الشرق قد غنت فقط ٩ أبيات .

كما اشتملت هذه القصيدة وفق ما جاء بديوان على الجارم على خمسة مقاطع .. المقطع الأول وعدد أبياته ثمانية أبيات .. اختارت منها أم كلثوم الأبيات السبعة التى شدت بها .. وقد أهملت البيت الثامن الذى يقول فيه الشاعر :

خدعتك ما عذب السلاف وإنما ... قد ذقت لما ذقت حلو لماك

وأما المقطع الثانى من هذه القصيدة فقد اشتمل على٩ أبيات .. وكذلك المقطع الثالث ٨ أبيات والرابع ٩ أبيات .. وأخيراً اشتمل المقطع الخامس والأخير على ٥ أبيات .

والملاحظ أن أم كلثوم لم تختر من هذه المقاطع المتبقية من القصيدة ولا بيت واحد .. وقد اكتفت بما اختارته من أبيات المقطع الأول ، وكما سبق وذكرنا .

***

وشاعر كبير مثل على الجارم له أهمية عظيمة فى حياتنا الأدبية والفكرية .. حيث ملأ السمع والأبصار بأعماله المتنوعة .. لذلك فقد حفلت بسيرة حياته عشرات الكتب .. والمجلات .. هذه الحياة الطيبة التى قضاها بيننا علماً من أعلام الفكر المصرى والعربى الحديث .. لا شك يحتم علينا أن نقتبس من نورها الشىء اليسير .. حتى تكتمل لدينا الفائدة .. ولنعرف بالضبط موقع هذا الشاعر فوق خريطة الأدب العربى الحديث ، هذه المعرفة فى حد ذاتها توضح لنا قيمة أم كلثوم .. المطربة العظيمة التى وضعت أيديها وحنجرتها على كنوز المعرفة المسطورة فوق أحرف منظومة فى أشعار تتلى وتسمع ..

ولد الشاعر على الجارم فى مدينة رشيد فى سنة ١٨٨١ وتعلم بالأزهر الشريف ودار العلوم التى تخرج منها سنة ١٩٠٨، ثم سافر إلى انجلترا فى بعثة علمية فأقام عامًا بمدينة توتنجهام التى درس بها اللغة الإنجليزية ثم التحق بكلية المعلمين بإكستر ومكث بها ثلاث سنوات درس خلالها التربية والأدب الإنجليزى وعلم النفس والمنطق..

ولما عاد إلى مصر فى أغسطس عام ١٩١٢ عُين مدرسًا بمدرسة التجارة المتوسطة ثم نقل منها بعد سنة إلى دار العلوم مدرسًا لعلوم التربية، وفى مايو عام ١٩١٧ نقل مفتشًا بوزارة المعارف ثم رقى إلى وظيفة كبير مفتشى اللغة العربية وبقى بهذه الوظيفة حتى عام ١٩٤٠ فنقل وكيلاً لدار العلوم وبقى بها إلى أن أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٢.. وقد عين عضوًا بمجمع اللغة العربية منذ إنشائه فى عام ١٩٣٢. ويعتبر على الجارم من كبار شعراء مصر فى العصر الحديث.. وله عدة مؤلفات سواء فى الشعر أو فى كل فروع الأدب. كما أن ديوانه طبع فى أربعة أجزاء[١].

(١) المجمعيون فى خمسين عامًا - المطابع الأميرية - إعداد. د. محمد مهدى علام.

٤ عزيز أباظة
وقصة السد العالى

بالرجوع إلى الإنتاج الأدبى الغزير الذى خلفه وراءه شاعرنا الكبير عزيز بك أباظة، اتضح لنا أنه يعتبر من كبار شعراء العربية فى عصرنا الحديث. فهو لا يقل مكانة أوقيمة عن كل من شوقى وحافظ أو غيرهما من شعراء العربية العظام، وهذا يوضح لنا بجلاء مدى ما اتصفت به أم كلثوم سيدة القصيدة العربية فى حسن اختيارها لكلمات هؤلاء الشعراء.

ولقد أجمع النقاد وكذلك معظم المؤرخين على أن الشاعر الكبير عزيز أباظة ، قد برع براعة غير مسبوقة إلا من أحمد شوقى أمير الشعراء فى مجال الشعر التمثيلى!..

ونراه فى هذا السياق قد كتب عدة مسرحيات شعرية تاريخية، هذه المسرحيات ذاتها هى التى غطت على شهرته فيما سواها من فنون الشعر الأخرى مثل كتابة القصيدة.

وعلى الرغم من أن عزيز أباظة لم يكتب فى حياته الكثير من الشعر الوطنى أو القومى مثل بقية أقرانه ممن لحقوه أو سبقوه، إلا أنه قد انشغل بالوطنية فى مجال المسرح الشعرى، حيث استلهم معظم موضوعات هذه المسرحيات من التاريخ العربى الإسلامى.

وقد أكد ذلك بوضوح الأديب الراحل طاهر الطناحى حين قال: «واذا كان عزيز أباظة لم يصرح فى المناسبات الوطنية والاجتماعية بقصائده كما فعل شوقى وحافظ ومطران، فإنه لم يغفل ذلك فى مسرحياته الشعرية.. فقد هز عدة مرات نفوس الجماهير الذين شاهدوا هذه المسرحيات بما كان يتخللها من نفثات وطنية وعظات اجتماعية وحكم فلسفية»(١)

ثم جاءت أم كلثوم لكى تضيف لهذا الشاعر الأرستقراطى الكبير جانبًا آخر فى حياته.. وذلك حين وقع اختيارها على قصيدة من بعض أشعاره الوطنية، والغريب أن هذا الشاعر الأرستقراطى قد قالها بمناسبة البدء فى بناء السد العالى.

هذه القصيدة التى سوف نعيش مع كلماتها بعدلحظات، قد فجرت فى حينها قضية

(١) حديقة الأدباء – طاهر الطناحى.

أدبية شغلت الرأى العام الأدبى، وذلك حين كتب الشاعر كامل الشناوى يقول إن قصيدة «السد العالى» للشاعر عزيز أباظة هى من تأليفه وليس من تأليف «عزيز أباظة» !!

ولنا أن نتصور كيف يكون الجو العام الأدبى فى مثل هذه الحالات التى أثيرت فيها شكوك حول إنتاج لأحد الشعراء المصريين الكبار.. وهذه الشكوك وجهها إليه شاعر مصرى كبير آخر!!!

ففى أواخر عام ١٩٥٩ وبداية عام ١٩٦٠ اختارت سيدة القصيدة العربية أم كلثوم هذه الكلمات من قصيدة غنتها تحت عنوان «قصة السد»، وجاء توقيت إذاعة هذه القصيدة متزامناً مع احتفالات البدء فى تنفيذ مشروع السد العالى..

وكلمات هذه القصيدة تقول:

كان حلمًا، فخاطراً، فاحتمالاً ... ثم أضحى حقيقة لا خيالاً
عمل من روائع العقل، جناه ... بعلم، ولم نجنه ارتجالاً
إنه السد، فارقبوا مولد السد ... وباهوا بيومه الأجيالا
يفتح الرزق، وهو سد فينسا ... ب جنوبًا في أرضنا وشمالا
ويشيع الحياة تنبض نبتًا ... يغمر الجدب نوره والرمالا
وبقي النهر نزوة المسرف المحتا ... ج، يلهو فينثر الأموالا

***

حقق المعجزات عزم رجال ... فاحمدوا الله أن حباكم جمالا
هو والنيل واهبا السد ... هذا سال تبرًا وذاك فاض نضالا
حين ألوى بعهده مقرض المال ... وصد الصديق عنا ومالا
واستدار التاريخ ينظر هل ... يستسلم الليث أم يصول مصالا
قال إني بانيه، وأعتز بالله ... وبالحق فاسترد التلالا
قالها من صميم أفئدة ... الشعب فكانت أقواله أعمالا
وإذا هبت الشعوب إلى الغايات ... شقت لنيلهن الجبالا

***

إلا أن شاعرنا الكبير عزيز أباظة قد اختار لهذه الكلمات عنوانًا آخر هو: «مولد السد العالى» حين نشرها فى أحد دواوينه.

كما أن أم كلثوم قد غيرت فى بعض كلمات هذه القصيدة التى لحنها الموسيقار رياض السنباطى.. فاختارت كلمة «من روائع العقل» .. بدلاً من «روائع الفن» التى ذكرها الشاعر فى البيت الثانى من هذه القصيدة.

ليس هذا فقط .. بل نرى أن أم كلثوم قد أهملت البيت الخامس من هذه القصيدة والذى قال فيه عزيز أباظة:

كان من خلف بين الشقيقين فانفض وعاد الإخاء أقوى حبالا

وقد طلبت أم كلثوم من الشاعر الكبير عزيز أباظة أن يكتب بيتًا بدلاً منه حتى لا يختل عدد أبيات القصيدة.. وبالفعل كتب عزيز أباظة هذا البيت الذى قال فيه وغنته أم كلثوم:

وبقى النهر نزوة المسرف المحتاج، يلهو فينثر الأموالا

***

وللشاعر عزيز أباظة تاريخ طويل ولمحات مضيئة فى حياتنا العامة وحياتنا الأدبية، وقد عاش بيننا خمسة وسبعين عاماً، فهو من مواليد عام ١٨٩٨ ومات فى عام ١٩٧٣.

وكعادة الشعراء الكبار مع النقاد ومع المؤرخين فقد شغل عزيز أباظة صفحات كثيرة مما كتبوه فى أوراقهم .. سواء عن حياته العامة أو حياته الأدبية.

ليس هذا فقط .. بل وكان هذا الشاعر ضيفاً على أوراق مهمة كتبتها عنه ابنته التى هى فى الوقت نفسه زوجة الأديب الروائى الكبير ثروت أباظة..

ومن بين ما كتب عن هذا الشاعر أنه ولد بقرية الربعماية مركز منيا القمح محافظة الشرقية، وتلقى تعليمه الابتدائى بالمدرسة الناصرية الابتدائية، ثم أكمل دراسته فى المرحلة الثانوية بالمدرسة التوفيقية بشبرا والمدرسة السعيدية بالجيزة، كما التحق بمدرسة الحقوق ونال منها شهادة الليسانس فى عام ١٩٢٣ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، ثم عمل مساعداً للنيابة فوكيلاً للنيابة فى مديرية الغربية، وفاز بعضوية مجلس النواب. كما عمل بوزارة الداخلية مديراً للتحقيق بها ثم وكيلاً لمديرية البحيرة عام ١٩٣٨

وظل بعد ذلك يتقلد العديد من المناصب التى كان آخرها مديراً لأسيوط كما اختير عضواً بمجلس الشيوخ فى عام ١٩٤٧. بعدما استقر المقام به وبأسرته فى مدينة القاهرة.

ونال الشاعر عزيز أباظة العديد من الجوائز عن إنتاجه الأدبى.. كان من أهمها الفوز بجائزة الدولة التقديرية فى الأدب والشعر عام ١٩٦٥ ، ويقال إنه بدأ فى تأليف الشعر وهو فى سن العاشرة من عمره[١] . ولكنه لم يعرف النبوغ فى المجال ذاته إلا فى كهولته، فتبوأ مكانة فى الطبقة الأولى من شعراء العربية، واشتهر بلا جهد فى الشهرة ولا جهاد، وفرضت قدرته نفسها على تقدير الناس، وإذا هو ينهض من فراشه فيرى نفسه ذائع الصيت ! خاصة فى مجال الشعر التمثيلى الذى أجاده مثل أحمد شوقى تماماً[٢] .

(١) هذا الرجل من مصر - لمعى المطيعى.

(٢) حديقة الأدباء- طاهر الطناحى - مصدر سابق.

٥ إبراهيم ناجى
صاحب الأطلال

وهذه المرة أيضا فضلنا أن نبدأ الحديث عن شاعرنا الكبير إبراهيم ناجى صاحب الأطلال، وعلاقته وأشعاره بسيدة القصيدة العربية كوكب الشرق أم كلثوم، مما كتبته أم كلثوم نفسها وذلك فى أوراقها الخاصة، هذه الكتابة رأينا فيها طعم ومذاق خاص، ذلك لأنها تقترب كثيراً من رحلة حياة هذا الشاعر الفنان، وتبين لنا كيف كان اللقاء الأول بينهما!.

ولسنا فى حاجة إلى أن نكرر ما سبق وذكرناه من أن شاعر الأطلال الدكتور إبراهيم ناجى قد استعاد مجد كلماته، بل واستمر ذلك المجد فى تألق دائم حتى يومنا هذا، عندما تغنت سيدة القصيدة العربية بأشعاره.. رغم أن له أكثر من ديوان من الأشعار الجميلة.. وكما سوف نعرف ذلك بعد لحظات!

ومما قالته أم كلثوم عن شاعرنا صاحب الأطلال قولها: «ولا أنس الشاعر إبراهيم ناجى، وقد رأيته حين كان يزور نقابة الموسيقين، وكان يبدو بائساً محطماً يجلس إلى الموسيقين، فتحس أنه يطوى صدره على قصة حب بلا أمل، ولم نتحدث فى الشعر مرة واحدة، ولكنى كنت أحس فيه رقة المشاعر التى لابد أن تؤتى ثماراً فنية طيبة سواء شعرية أو موسيقية، وقرأت له ديوانه بعد أن مات ووقفت عند الأطلال: «وهل رأى الحب سكارى مثلنا»!، ودفعت بالقصيدة إلى رياض السنباطى الذى قال: ستكون الأطلال حدثاً فنيا لا نظير له ولعل الذى يميز ناجى صدق إحساسه فإن صدق الإحساس هو شرط النجاح فى أى عمل فنى..».

وبخلاف ما ذكرته أم كلثوم عن أول لقاء لها مع ناجى. ترددت أقاويل كثيرة حول هذا التعارف وبالذات عن ارتباط أم كلثوم بقصيدته الاطلال.. وقد فضلنا كما سبق وذكرت أن يكون هذا الحديث على لسان أم كلثوم من دون غيرها.

ومما روته أم كلثوم عن هذه العلاقة نفهم أنها لم تتغن بأشعاره إلا من بعد رحيله، وهو يتساوى فى هذه الخصوصية مع أمير الشعراء شوقى ـ الذى تقابلت معه أم كلثوم كثيراً من قبل رحيله ـ ومع ذلك لم تغن أشعاره إلا بعد الرحيل!!.

إذ من المعروف أن الدكتور إبراهيم ناجى قد توفى فى عام ١٩٥٣ : اما أم كلثوم فقد غنت قصيدة الأطلال فى عام ١٩٦٦ !، ولقد تصادف أن تذيعها كوكب الشرق فى حفل عام أقامته بعد رحيل الموسيقار محمد القصبجى، وبالتالى لم يستخدم فى لحنها العود.

وتقول كلمات قصيدة الأطلال التى غنتها أم كلثوم:

يا فؤادى لا تسل أين الهوى ... كان صرحاً من خيال فهوى
اسقنى واشرب على أطلاله ... واروعنى طالما الدمع روى
كيف ذاك الحب أمسى خبراً ... وحديثاً من أحاديث الجوى

***

لست أنساك وقد أغريتنى ... بنمير عذب المناداة رقيق
ويد تمتد نحوى كيد ... من خلال الموج مدت لغريق
وبريق يلمأ السارى له ... أين فى عينيك ذياك البريق

***

يا حبيباً زرت يوماً أيكه ... طائر الشوق أغنى ألمى
لك إبطاء المدلل المنعم ... وتجنى القادر المحتكم
وحنينى لك يكوى أضلعى ... والثوانى جمرات فى دمى

***

أعطنى حريتى أطلق يدى ... إننى أعطيت ما استبقيت شيئاً
آه من قيدك أدمى معصمى ... لم أبقيه وما أبقى على
ما احتفاظى بعهود لم تصنها ... والام الأسر والدنيا لدى

***

أين من عينى حبيب ساحر ... فيه عز وجلال وحياء
واثق الخطوة يمشى ملكاً ... ظالم الحُسن شهى الكبرياء
عبق السحر كأنفاس الرُبى ... ساهم الطرف كأحلام المساء

***

أين منى مجلس أنت به ... فتنة تمت سناء وسنى

وأنا حب وقلب هائم ... وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق رسول بيننا ... وندير قدم الكأس لنا

***

هل رأى الحب سكارى مثلنا ... كم بنينا من خيال حولنا
ومشينا في طريق مقمر ... نثب الفرحة فيه قبلنا
وضحكنا ضحك طفلين معاً ... وعدونا فسبقنا ظلنا

***

وانتبهنا بعدما زال الرحيق ... وأفقنا ليت أنا لا نفيق
يقظة طاحت بأحلام الكرى ... وتولى الليل والليل صديق
وإذا النور نذير طالع ... وإذا الفجر مطل كالحريق
وإذا الدنيا كما نعرفها ... وإذا الأحباب كل في طريق

***

أيها الساهر تغفو ... تذكر العهد وتصحو
وإذا ما النأم جرح ... جد بالنذكار جرح
فتعلم كيف تنسى ... وتعلم كيف تمحو

***

يا حبيبي كل شيء بقضاء ... ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ... ذات يوم بعد ما عز اللقاء
فإذا أنكر خل خله ... وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته ... لا تقل شئنا فإن الحظ شاء

***

هذه الأبيات التي تغنت بها كوكب الشرق أم كلثوم من كلمات الدكتور إبراهيم ناجي قد نشرها ضمن قصيدة طويلة بديوانه الذي صدر تحت عنوان «ليالي القاهرة» ، هذا الديوان نشرت به كذلك مقدمة أوضحت لنا قصة هذه القصيدة.

ومما جاء بها قول الشاعر: «إن هذه قصة حب عاثر.. ! التقيا وتحابا.. ثم انتهت القصة بأنها قد صارت أطلال جسد، وصار الشاعر أطلال روح.. وهذه الملحمة.. تسجل كل وقائعها كما حدثت تماماً!».

ويتضح لنا من قول الشاعر في المقدمة السابقة بأنها ملحمة في صورة قصيدة طويلة.

وهى بالفعل كذلك. إذ يبلغ عدد أبياتها ١٣٤ بيتا.. وعدد مقاطعها ستة وعشرون مقطعاً.. وكل مقطع يحوى أربعة أبيات أو أكثر.. وكما سوف نبين ذلك حالاً..

ففى المقطع الأول توجد أربعة أبيات، اختارت منها أم كلثوم ثلاثة أبيات فقط.. وهى الأبيات التى تقول فى مطلعها:

يا فؤادى لا تسل أين الهوى

وبذلك أهملت البيت الرابع الذى يقول فيه إبراهيم ناجى.

وبساطاً من ندامى حلم هم تواروا أبداً وهو انطوى

وكذلك بلغ عدد أبيات المقطع الثانى أربعة.. أهملتهم جميعا أم كلثوم.. أما عدد أبيات المقطع الثالث فبلغت على غير العادة بالنسبة لهذه القصيدة ثمانية أبيات اختارت أم كلثوم منها ثلاثة أبيات فقط.. وهى التى تقول فى مطلعها:

لست أنساك وقد أغريتنى

أما الأبيات الخمسة التى تركتها أم كلثوم فيقول فيها الشاعر ناجى:

يا غراماً كان منى فى دمى قدراً كالموت أو فى طعمه
ما قضينا ساعة فى عرسه وقضينا العمر فى مأتمه
ما انتزاعى دمعة من عينه واغتصابى بسمة من فمه
ليت شعرى أين منه مهربى أين يمضى هارب من دمه

هذه أربعة أبيات.. أما البيت الخامس فى المقطع نفسه فجاء موقعه فى ذات المقطع رقم سبعة. وهو الذى تقول كلماته:

آه يا قبلة أقدامى إذا شكت الأقدام أشواك الطريق

وفى المقطع الرابع الذى بلغت أبياته أربعة أيضا لم تغن منه أم كلثوم ولا بيت واحد!. وكذلك فعلت مع أبيات المقطع الخامس وعددها أيضا أربعة والمقطع السادس وعددها أربعة، والمقطع السابع وعددها كذلك أربعة!!.

ثم اختارت أم كلثوم من المقطع الثامن ثلاثة أبيات من أصل أربعة، وهى التى تقول فى مطلعها:

أين من عينى حبيب ساحر!

ثم أهملت البيت الرابع الذى قال فيه إبراهيم ناجى:

مشرق الطلعة فى منطقه لغة النور وتعبير السماء

ليس هذا فقط .. بل غيرت فى البيت الأول من هذا المقطع كلمة «نُبل» واختارت بدلاً منها كلمة «عز».

والملاحظة الهامة الواجب الإشارة إليها فى هذا السياق، أن موقع الأبيات الثلاثة السابقة الإشارة جاء ترتيبها وفق ما تغنت به أم كلثوم أرقام ١٣، ١٤، ١٥، مع أن موقعها بالنسبة للقصيدة التى كتبها ناجى ونشرها فى ديوانه المشار إليه هو أرقام ٣٣، ٣٤، ٣٥!.

ومن المقطع التاسع وعدد أبياته أربعة اختارت أم كلثوم ثلاثة منها وهى التى تقول فى مطلعها:

أين منى مجلس أنت به

وقد أهملت بذلك البيت الرابع الذى يقول فيه الدكتور إبراهيم ناجى:

وسقانا فانتفضنا لحظة لغبار آدمى مسنا

والغريب أن أم كلثوم قد أهملت بعد ذلك كل أبيات المقطع العاشر والمقطع الحادى عشر والمقطع الثانى عشر والثالث عشر، وعدد أبيات كل منهم أربعة!. ثم عادت واختارت من المقطع الرابع عشر ثلاثة أبيات من أصل أربعة، وهى التى تقول فى مطلعها:

يا حبيبا زرت يوما أيكه

وأما البيت الرابع والذى لم تختره أم كلثوم فيقول فيه إبراهيم ناجى:

وأنا مرتقب فى موضعى مرهف السمع لوقع القدم

وقد غيرت أم كلثوم كلمة «أعظمى» واختارت بدلاً منها كلمة «أضلعى» والتى ذكرها ناجى فى البيت الذى يقول فيه:

وحنينى لك يكوى أعظمى والثوان جمرات فى دمى!

كما جاء موقع هذه الأبيات فيما تغنت به كوكب الشرق مخالفاً لموقعها فى القصيدة الأصلية.. حيث جاءت أرقامها ٧، ٨، ٩ فى حين احتلت هذه الأبيات نفسها أرقام ٥٧، ٥٨، ٥٩ فى القصيدة التى نشرها ناجى فى الديون المشار إليه.

وكذلك لم تغن أم كلثوم أية أبيات من المقطع الخامس عشر وعددها أيضا أربعة.. ثم عادت واختارت من المقطع السادس عشر ثلاثة أبيات من أصل أربعة وهى التى تقول فى مطلعها:

أعطنى حريتى أطلق يدى!

وأما البيت الذى أهملته فيقول فيه إبراهيم ناجى:

ها أنا جفت دموعى فاعف عنها إنها قبلك لم تبذل لحى

وجاء موقع الأبيات الثلاثة السابقة بالنسبة لما غنته أم كلثوم أرقام ١٠، ١١، ١٢ فى حين احتلت فى القصيدة المنشورة بالديوان أرقام ٦٥، ٦٦، ٦٧!.

وكذلك لم تغن أم كلثوم أية أبيات من المقطع السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر.. وعدد أبيات كل مقطع منهم أربعة، أما المقطع العشرين الذى لم تغن منه أم كلثوم ولا بيت واحد.. فعدد أبياته ثمانية!!.

ومن المقطع الواحد والعشرين غنت أم كلثوم ثلاثة أبيات من أصل ٢٦ بيتاً!. وهى الأبيات التى تقوم فى مطلعها:

أيها الشاعر تغنو

وبذلك تكون قد أهملت من هذا المقطع وحده ثلاثة وعشرين بيتاً!! كما جاء ترتيب هذه الأبيات فيما غنته أم كلثوم أرقام ٢٦، ٢٧، ٢٨ فى حين جاء موقعها فى الديوان أرقام ٩٥، ٩٦، ٩٧.

والمقطع الوحيد الذى التزمت أم كلثوم بعدد أبياته، كان هو المقطع رقم ٢٢.. وهى الأبيات التى اختتمت بها كوكب الشرق ما غنته من الاطلال.. والتى تقول فى مطلعها:

يا حبيبى كل شىء بقضاء!

ويبقى بعد ذلك من القصيدة نفسها والتى نشرها إبراهيم ناجى فى ديوانه المشار إليه أربعة مقاطع أخرى، ولم تغن منها أم كلثوم ولا بيت واحد. وكما سبق وذكرنا فإن العدد الكلى لأبيات هذه القصيدة بلغ ١٣٤ بينما غنت منها أم كلثوم ٣٢ بيتاً فقط!.

* * *

وإذا ما تركنا الأطلال وما وقع لها من تعديل وتبديل.. ونظرنا إلى القصيدة الثانية التى تغنت بها سيدة القصيدة العربية للشاعر ناجى.. وهى قصيدة «مصر» والتى لحنها أيضا الفنان رياض السنباطى.. نجد أن أم كلثوم قد اختارت منها سبعة أبيات فقط من أصل سبعة عشرة بيتاً. ورغم ذلك جاء التعديل بها طفيفاً إذا ما قيس بما وقع للأطلال..

ولسوف نتبين ذلك بعدما نستمع إلى الأبيات إلى اختارتها أم كلثوم وغنتها فى عام ١٩٦٩ حيث إذيعت فى التوقيت نفسه على كل موجات الاذاعات العربية، وغنى عن البيان الأهداف والدوافع التى من أجلها تغنت كوكب الشرق بهذه القصيدة والتى قالت فى أبياتها:

أجل، إن ذا يوم لمن يفتدى مصرا ... فمصر هى المحراب والجنة الكبرى
خلقنا نولى وجهنا شطر حبها ... ونبذل فيه الصبر والجهد والعمرا
سلاماً شباب النيل فى كل موقف ... على الدهر نجنى المجد للنيل والفخرا
تعالوا فقد حانت أمور عظيمة ... فلا كان منا غافل يصر العصرا
تعالوا نقل للصعب أهلا فإننا ... شباب الفنا الصعب والمطلب الوعرا
شباب إذا نامت عيون فإننا ... بكرنا بكور الطير نستقبل الفجرا
شباب نزلنا حومة المجد كلنا ... ومن يفتدى للنصر ينتزع النصرا

* * *

وقد نشر الدكتور إبراهيم ناجى هذه القصيدة بنفس العنوان فى ديوانه «ليالى القاهرة» الذى ضم أيضا قصيدة الأطلال.. وكان من أهم التعديلات التى أجرتها أم كلثوم على هذه القصيدة اختيرها البيتين الأول والثانى والتى تقول فيهما كمطلع:

أجل إن ذا يوم لمن يفتدى مصرا

وقد أهملت بعد ذلك سبعة أبيات قال فيها الشاعر:

نبث بها روح الحياة قوية ... ونقتل فيها الضنك والذل والفقرا
نحطم أغلالاً ونمحو حوائلا ... ونخلق فيها الفكر والعمل الحرا
أجل إن ماء النيل قد مر طعمه ... تناوشه الفتاك لم يرعوا شبرا
فدالت به الدنيا وربعت حمائم ... مغردة تستقبل الخير والبشرى
وحامت على الأفق الحزين كواسر ... إذا ظفرت لا ترحم الحسن والزهرا
تحط كما حط العقاب من الذرى ... وتلتهم الأفنان والزغب والوكرا
فهلا وقفتم دونها تمنحونها ... أكفاً كماء المزن تمطرها خيراً

ثم عادت أم كلثوم لتختار من هذه القصيدة بقية ما غنته بدءاً من البيت التاسع وفق ترتيب إبراهيم ناجى فى ديوانه، وقد أهملت ثلاثة أبيات وموقعها فى القصيدة الأصلية أرقام ١٠، ١١، ١٢..

وهى التى قال فيها الشاعر:

تعالوا نشيد مصنعاً ربُ مصنع ... بدر على صناعنا المغنم الوفرا
تعالوا نشيد ملجأ ربُ ملجأ ... يضم حطام البؤس والأوجه الصغرا
تعالوا لنمحو الجهل والعلل التى ... أحاطت بنا كالسيل تغمرنا غمرا

* * *

ولشاعرنا الكبير، شاعر الأطلال الدكتور إبراهيم ناجى.. حق كبير علينا.. هذا الحق يقتضى منا وفق ما سرنا فيه فى ضوء المنهج السابق، ضرورة أن نسوق قبساً من نور ما قيل فى سيرة حياته الذاتية ولقد حفلت بها عشرات الكتب.. حيث تناولت هذه السيرة قصة حياته منذ مولده وحتى رحيله.

ومما قيل فى هذا السياق أن إبراهيم ناجى ولد فى حى شبرا بالقاهرة فى عالم ١٨٩٨، وتخرج فى مدرسة الطب فى عام ١٩٢٢ فعين طبيباً بالسكة الحديد ثم فى وزارة الصحة فوزارة الأوقاف.

ورغم ارتباط إبراهيم ناجى بالطب ومواده الدراسية إلا أنه كان قد عكف على دراسة الأدب خاصة الأدب العربى القديم، فقرأ ديوان أبى الطيب المتنبى وابن الرومى، كما عاش فترة من حياته مع أبى فراس.

ولم تتوقف ثقافته على العربية فقط، بل قرأ الأدب الأجنبى، ولذلك كان فى بداية حياتيه الأدبية مفتوناً بالكاتب الإنجليزى الشهير «تشارلز ديكنز».

ولقد ذكر ناجى نفسه ذلك فى مقدمة كتابه «مدينة الأحلام» حيث قال: «إن ديكنز فتح له آفاق الجمال».

وبدأ ناجى محاولاته الشعرية الأول وهو فى الحادية عشرة من عمره، وبعد تخرجه من كلية الطب بدأ يتردد على مجالس الأدباء.. حيث شارك فى تأسيس جماعة أبوللو للشعر فى عام ١٩٣٢، وبعد عام من تأسيس هذه الجماعة ظهر ديوانه الأول «وراء الغمام» وفى عام ١٩٥١ أصدر ديوانه الثانى «ليالى القاهرة»..

وبعد رحيله بأربع سنوات صدر ديوانه الثالث «الطائر الجريح» والذى جمعه شاعرنا الراحل أحمد رامى[١].

رحل إبراهيم ناجى عن عالمنا فى عام ١٩٥١.. وظلت ذكراه عالقة فى القلوب والأذهان تتجدد كل حين.. عندما تردد أم كلثوم كلماته عن الأطلال.

(١) دائرة المعارف الأدبية.

٦ إسماعيل صبري..

ثلاثة أبيات عاطفية فقط!!

يعتبر شاعر الوطنية الكبير إسماعيل باشا صبرى من أوائل الشعراء المصريين الذين ارتبطت بكلماتهم أم كلثوم فى بداية مسيرة حياتها الفنية، وهذا يؤكد ما سبق وذكرناه عن ذكاء وثقافة هذه الفنانة الخالدة. إذ اختارت من كلمات هذا الشاعر ثلاثة أبيات فقط.. اتسمت كلماتها بالصعوبة رغم ما بها من معانٍ فى غاية السمو والرقة، ثم دفعت بها إلى الملحن الكبير آنذاك الشيخ أبو العلا محمد لكى يضع لها الألحان.

ووفق إجماع المؤرخين والنقاد.. فقد تربع هذا الشاعر على عرش القصيدة الوطنية جنبا إلى جنب مع أحمد شوقى أمير الشعراء وحافظ إبراهيم ومحمود سامى البارودى وعبدالله النديم وآخرين.. وقد ذكر لنا ذلك بالتفصيل مؤرخنا العظيم عبدالرحمن الرافعى.. بل إن هذا المؤرخ قد وضع اسماعيل صبرى فى مرتبة متقدمة عن كل من شوقى وحافظ إبراهيم.. ولسوف نبين ذلك أكثر بعدما نعيش ولو للحظات مع ما شدت به أم كلثوم من كلمات لهذا الشاعر الكبير..

ففى عام ١٩٢٦ غنت أم كلثوم ثلاثة أبيات من تأليف الشاعر اسماعيل باشا صبرى واختارت لها عنوانا يقول: «يا آسى الحى». ثم سجلتها على أسطوانة جرامفون فى العام نفسه.

وتقول كلمات هذه الأبيات:

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى ... وهل تبينت داء فى زواياها
أواه من حرق أودت بمعظمها ... ولم تزل تتمشى فى بقاياها
يا شوق رفقا بأضلاع عصفت بها ... فالقلب يخفق زعراً فى حناياها

* * *

وبالرجوع إلى ديوان هذا الشاعر الكبير والذى نشر به هذه القصيدة وجدنا أن عنوانها الذى اختاره المؤلف هى: «كبد مقروحة».. وليس «يا آسى الحى» كما ذكر ذلك كتاب

النصوص الكاملة لما تغنت به كوكب الشرق. كما أن إسماعيل صبرى قد نشرها فى عام ١٩١٣ من قبل أن يضعها فى ديوانه المشار إليه.. وهى قصيدة مكونه بالفعل من ثلاثة «أبيات!. وهى الأبيات التى غنتها أم كلثوم، وقد غيرت بعض كلماتها خاصة كلمات البيت الثانى الذى تقول فيه

أواه من حرق أودت بمعظمها ولم تزل تتمشى فى بقاياها

إذ غيرت كلمة «بمعظمها».. بدلاً من كلمة «بأكثرها» التى كتبها الشاعر فى ديوانه!.

وقد سبق لنا القول بأنها غيرت كذلك عنوان القصيدة مستعينة فى ذلك بأولى كلمات البيت الأول ليكون ذلك هو العنوان.

* * *

ومن بعد حديث الديوان.. نعود مرة أخرى لكى نتحدث عن بعض اللقطات الحيوية فى حياة هذا الشاعر الكبير من حيث النشأة والميلاد وملامح عهده الأدبى. حيث أجمعت معظم المصادر المروية تاريخاً أن اسماعيل باشا صبرى ولد فى ١٦ فبراير عام ١٨٥٤ بمدينة القاهرة، والتحق بمدرستى التجهيزية والإدارة «الحقوق»، وأتم دراسته بمصر فى عام ١٨٧٤ ثم التحق بالبعثة المصرية فى فرنسا ونال هناك شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية «اكس» على ١٨٧٨، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلاً لوزارة الحقانية «العدل» فى عام ١٨٩٩.. ثم اعتزل الخدمة فى عام ١٩٠٧ متفرغاً للأدب والشعر(١).

* * *

وكانت حياة هذا الشاعر الكبير زاخرة بالعمل والإنتاج بالقياس إلى وظيفته فى الأعوام الخمسين الأول.. وقد قضى السنوات الباقية من عمره هادئا بين كلماته وأشعاره، حيث قرأ الشعر العربى القديم وتأثر بالشاعر البحترى فى إحكام أسلوبه وصقل الديباجة وحلاوة الموسيقى(٢).

ورغم حياته الطويلة التى امتدت لأكثر من سبعين عاماً إلا أنه لم يخرج لنا ثمار دراسته

(١) شعراء الوطنية فى مصر ـ عبدالرحمن الرافعى ـ كتاب دار المعارف.
(٢) أدباء لا تغرب عنهم الشمس ـ فتحى رزق.

فى الخارج ولم يجنح إلى كتابه المسرحية الشعرية التى كانت منتشرة آنذاك فى أوربا فى هذه الأونة.

ويؤكد المؤرخ عبدالرحمن الرافعى أن مواهب إسماعيل صبرى فى الشعر قد ظهرت منذ نعومة أظفاره، وظلت تنمو وتزدهر طوال حياته. وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره، كما كان معاصروه يلقبونه بشيخ الشعراء، واعترف له بذلك زملاؤه شوقى وحافظ ومطران، وغيرهم. وتتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن.. وكذلك كانت وطنيته عميقة الجذور.. وهو من أصدق أصدقاء الزعيم الوطنى مصطفى كامل الذى أيده فى جهاده منذ الساعات الأولى لكفاحه.

وعاش شاعرنا الكبير اسماعيل صبرى حياة كريمة وقد توفى فى ٢١ مارس عام ١٩٢٣ بعد مرض طويل مخلفاً وراءه كنوزاً من الشعر والوطنية والفضائل النفيسة.. على حد قول عبدالرحمن الرافعى.

٧ محمود حسن اسماعيل

ثلاث قصائد وطنية

يبدو أن تعامل سيدة القصيدة العربية كوكب الشرق أم كلثوم، مع الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل قد جاء فى فترة إقدام أم كلثوم على التغنى بالقصائد الوطنية والتى ارتبطت فى حياتنا بالمناسبات!.

ودلينا إلى ذلك أنها غنت لهذا الشاعر ثلاث قصائد عبرت من خلالها بالفعل عن ثلاث مناسبات وطنية وقومية.. الأولى غنتها فى عام ١٩٥٦ فى مناسبة إعلان دستور جديد لمصر بعد ثورة يوليو، والثانية شدت بها كوكب الشرق بعد هذا التاريخ بعامين.. أما الثالثة فقد غنتها بعد هذا التاريخ أيضا بعشر سنوات..

وليس لدينا أية مؤشرات سواء مسموعة أو مكتوبة عن كيفية اللقاء الذى تم بين أم كلثوم والشاعر محمود حسن إسماعيل، وهو من شعراء مصر المعاصرين الذين كتبوا كل قصائدهم تمجيداً فى الوطنية المصرية وفى عروبتها. وقد يكون المنصب الذى تولاه محمود حسن إسماعيل فى هذه الفترة من حياته كمراقب ومستشار للإذاعة المصرية دخل كبير فى إتمام هذا اللقاء!.

وعلى أية حال فسوف نعيش مع الكلمات التى غنتها أم كلثوم.. وكذلك مع ما كتبه الشاعر محمود حسن اسماعيل.. لنعرف حجم التغييرات التى أجرتها سيدة القصيدة العربية، وقيمة هذه التعديلات.

فقد غنت أم كلثوم أولى قصائد شاعرنا محمود حسن اسماعيل فى شهر يناير عام ١٩٥٦.. بمناسبة إعلان الدستور الجديد، ولم تسجلها على أسطوانات، وهى من تلحين الملحن الكبير رياض السنباطى..

وتقول فيها.

رأيت خطاها على الشاطئين ... صباحاً ينور فى المشرقين
يثبت الخلود ويحيى الوجود ... ويبنى الحياة على الضفتين

***

بلادى فديتك هذا الصباح ... بشير من الخير والسعد لاح
على وجهه قصة للكفاح ... تمد الجنى.. فاقطفى بالبدين

***

محا من ضفافك ليل الطغاة ... وأعلى الكرامة فوق الجباة
وأحياك.. حتى قهرت الحياة ... وقدت الزمام إلى الفرقدين

***

وأرضك ما عاد ظلامها ... بكفيه تزبل أيامها
سلى الفأس عنها.. فأحلامها ... تفتح بالرزق فى جنتين

***

حماها، وحرر منها الجبين ... ورد جناها إلى الغارسين
وكانت من الظلم تشكو الأنين ... فترتد دمعتها، دمعتين

***

صحت واستردت إباء العلم ... وأضحت نشيداً أبى النغم
وفجراً من البعث يمحو الظلم ... وتهفو إلى نوره كل عين

***

وبالرجوع إلى الديوان الذى نشر به الشاعر محمود حسن اسماعيل هذه القصيدة.. وجدنا إن اسمه: ديوان «أغانى الحرية»، ونشر فى الجزء الثانى من كتاب الأعمال الكاملة للشاعر.

وفى مقدمة فى أسطر قليلة كتبها الشاعر تحت عنوان قصيدة «الصباح الجديد» والتى نشرت بالديوان المشار إليه قال: «فى ١٦ يناير عام ١٩٥٦ غنتها أم كلثوم ومصر الثائرة المتحررة تعلن دستورها ودستور ثورتها وهى ماضية إلى الأمام بعد أن تخلصت من نير الاستبداد والإقطاع والاحتلال.. راحت ترسى قواعد البناء لمجتمعها الجديد. وترجمت هذه القصيدة إلى اللغة الصينية».

ولقد لاحظنا فى السياق نفسه أن أم كلثوم قد اختارت من أبيات قصيدة «الصباح الجديد» ١٢ بيتاً فقط من أصل ١٨ بيتاً كتبها الشاعر محمود حسن اسماعيل.. ووفقاً لمنهجنا السابق والذى اتبعناه مع غيره من شعراء أم كلثوم خاصة بالنسبة لبيان أصل

القصيدة وما أدخل عليها من تعديلات، اتضح لنا أن سيدة القصيدة العربية قد التزمت فى اختيارها للأبيات التى تغنت بها.. بالترتيب الذى وضعه الشاعر دون تبديل أو تأخير أو تعديل!. رغم أنها قد أهملت ستة أبيات.. نحن نعيد نشرها هنا.. حتى تكتمل الفائدة..

وهى الأبيات التى قال فيها شاعرنا محمود حسن اسماعيل:

وسارت موحدة فى الجهود ... بعزم قوى وبأس شديد
ومجد على الدهر ماض تليد ... سنحميه بالروح والساعدين

***

له الله.. صبح قوى الضياء ... جرت نار ثورته فى الدماء
وطارت به مصر نحو السماء ... ومدت ضحاها على الخافقين

***

وأعطت جناها عميم الثمار ... بشورى من الرأى فيها منار
بلادى تألق ضوء النهار ... وعمت بشائره الشاطئين

***

وفى عام ١٩٥٨ كررت أم كلثوم تجربة أن تغنى إحدى قصائد محمود حسن اسماعيل، وهذه المرة اختارت قصيدة عن بغداد سجلتها على أسطوانة صوت القاهرة ولحنها كذلك رياض السنباطى.

وهى التى قالت فيها:

بغداد يا قلعة الأسود
يا كعبة المجد والخلود
يا جبهة الشمس للوجود

سمعت فى فجرك الوليد ... توهج النار فى القيود
وبرق النصر من جديد ... يعود فى ساحة الرشيد

بغداد يا قلعة الأسود

زأرت فى حالك الظلام ... وقمت مشدودة الزمام
للنور للبعث للأمام

لبأسك الظافر العتيد ... ومجدك الخالد التليد

عـصـفـت بـالـنـار والحـديـد وعـدت لـلـنـور مـن جـديـد

بـغـداد يـا قـلـعـة الأسـود

يـا عـرب دوخـوا الـلـيـالـى

وحـطـمـوا صـخـرة المحـال

ضـمـوا عـلى شـعـلـة النـضال

مـواكـب الـبـعـث والـصـعـود لـقـمـة الـنـصـر فـى الـوجـود

عـودوا لأيـامـكـم وعـودى كـالـفـجـر فـى زحـفـك الجـديـد

بغداد يا قلعة الأسود

قـد أذن الـلـه فـى عـلانـه أن يـنـهـض الـشـرق مـن كـراه

ويرحل الليل من سماه

وتـسـطـع الـشـمـس مـن جـديـد مـن أمـسـنـا لـلـثـائـر الجـديـد

بغداد يا قلعة الأسود

***

والغريب أننا حين رجعنا لكل دواوين الشاعر لم نعثر فيها على أصل لهذه القصيدة!!.. بل وجدنا أن الشاعر محمود حسن اسماعيل قد نشر فى هذه الدواوين قصيدتين عن بغداد.. الأولى بعنوان «بغداد» فى ديوانه «لابد».. والثانية بعنوان «غضبة الثائر» بل وأكثر من ذلك، فإن شاعرنا قد طبع أحد دواوينه فى مدينة بغداد فى ١٩٧٢. وأيضا لم ينشر فيه القصيدة المشار إليها!.

وهذه الملحوظة تحتاج إلى دراسة واستبيان للوقوف على سرها وربما يرجع السبب فى عدم نشرها إلى جامعى أعمال الشاعر محمود حسن اسماعيل حيث لم يلتفتوا إليها.. ونحن هنا ننوه عنها من أجل تدارك ذلك النقص إن امكن فى الطبعات الجديدة لدواوين هذا الشاعر الكبير.

***

وفى عام ١٩٦٦ اكتملت رحلة أم كلثوم مع قصائد محمود حسن اسماعيل حيث غنت له قصيدة، «ياربى الفيحاء».. فى فبراير من العام نفسه وأيضا من تلحين رياض السنباطى.

وهى التى تقول فيها:

وفق الله على النور خطانا ... والتقت فى موكب النصر يدانا
وحدت شمس الضحى أعلامنا ... وانبرت فى الشرق تحيى المهرجانا
لا تسل عنا ولا كيف لقانا ... واسأل التاريخ عنا والزمانا
نحن كنا مهجة واحدة ... ودماً حراً وروحاً وجنانا
بارك الله خطانا وسرت ... صيحة الفجر فلبينا الأذانا
ومضينا فى طريق واحد ... يتغنى الدهر فيه بعلانا
عربى أشعلت أمجاده ... وحدة تجرى حياة فى دمانا
يا ربى الفيحاء.. حبتك العلا ... والبطولات رحابا وجنانا
هذه أيامنا قد رجعت ... سيرة للمجد يرويها هوانا
فى صباح الشرق عدنا أمة ... مثلما كنا على الدنيا وكانا
بردى والنيل فى يوم العلا ... وحدا الشعبين قلبا ولسانا

* * *

ولقد لاحظنا بعض التغييرات التى أجرتها أم كلثوم على هذه القصيدة، حين رجعنا إلى الديوان الذى نشرت به.. واسمه ديوان «أغانى الحرية». منها على سبيل المثال عنوان القصيدة ذاته. حيث حذفت ياء النداء واكتفت أم كلثوم بكلمة «ربى» فقط! ومع ذلك فقد التزمت أم كلثوم بعدد أبيات هذه القصيدة كما هى موجودة فى الديوان المشار إليه.. والتى بلغت أحد عشر بيتاً. وقد كتبها الشاعر متأثراً بحادث قيام أول وحدة عربية فى العصر الحديث بين مصر وسوريا.. ودليل ذلك قوله فى سطور كتبها كمقدمة لهذه الأبيات: «فى ١١ فبراير عام ١٩٥٨، وفجر الوحدة العربية يشرق من جديد يدوى نفيره فى سماء العالم كله، معلنا وحدة مصر وسوريا ومولد الجمهورية العربية المتحدة»..

ونلاحظ أن أم كلثوم قد تغنت بهذه الكلمات بعد ضياع الوحدة بأكثر من سبع سنوات، ومعنى ذلك أن الشاعر كتب قصيدته «يا ربى الفيحاء» فى مناسبة وطنية، ثم غنتها سيدة القصيدة العربية فى مناسبة قومية أخرى، وربما أرادت أم كلثوم من وراء ذلك أن تذكر الناس بهذا الحدث الفريد.. ومع ذلك لم يتذكروه.

ومن أقوى الملاحظات التى دوناها على هامش هذه القصيدة.. أن أم كلثوم لم تهمل منها ولا بيت واحد.. وبالتالى فقد أصبحت هذه القصيدة فى عداد القصائد القليلة التى لم تشهد تغييرات كبيرة حين أقبلت على الشدو بها.

* * *

هذا عن القصائد الثلاث، فماذا عن شاعرنا محمود حسين اسماعيل ؟!. إن ذلك ما سوف نقف عليه من خلال الأسطر القليلة القادمة.

فقد ولد الشاعر محمود حسن اسماعيل فى الثانى من شهر يوليو عام ١٩١٠ بقرية «النخيلة» مركز أبو تيج بمديرية أسيوط، ومن أسيوط حصل على شهادة البكالوريا ثم التحق بكلية دار العلوم التى تخرج منها فى عام ١٩٣٦.. ثم عمل محرراً بمجمع اللغة العربية.. وكان موضع تقرير وحفاوة من كل أعضاء المجمع الذين تعرف عليهم.. ثم التحق الشاعر محمود حسن اسماعيل بعد ذلك بالاذاعة المصرية فى عام ١٩٤٤ وتدرج فى العمل الثقافى بالاذاعة وبرامجها وعين بعد ذلك مستشاراً للإذاعة.

نال جائزة الدولة فى الشعر فى عام ١٩٦٤ عن ديوانه «قاب قوسين».. بعد ذلك سافر شاعرنا إلى الكويت ليعمل هناك خبيراً فى مراكز بحوث المناهج محافظاً على شاعريته حتى توفاه الله فى ٢٧ ابريل عام ١٩٧٧.

وترك محمود حسن اسماعيل للساحة الأدبية على مدى عمره كله أربعة عشر ديواناً تمجد عبير حياته وعمق تجربته التى عايش فيها تجربة الأمة العربية وآلامها، وعناوين هذه الدواوين هى: أغانى الكوخ ـ هكذا أغنى ـ أين المفر ـ نار وأصفاد ـ قاب قوسين ـ لابد ـ التائهون ـ هدير البرزخ ـ صلاة ورفض ـ السلام الذى أعرفه ـ نهر الحقيقة ـ صوت من الله ـ موسيقى من الشرق ـ رياح الغيب. وقد نشرت جريدة الأهرام أشعار محمود حسن اسماعيل بدعوة من أنطون الجميل رئيس التحرير والشاعر أيضا.. كما نشرت له مجلة الثقافة أيام أحمد أمين ومجلة الرسالة على أيدى محمد حسن الزيات[١].

---

(١) هذا الرجل من مصر ـ لمعى المطيعى ـ مصدر سابق.

٨ صالح جودت
وعلاقة خاصة بأم كلثوم

هذا الشاعر الذى ترجع جذوره إلى الأصول التركية.. رغم أنه من مواليد مدينة الزقازيق، وعاش أحلى أيام حياته الدراسية الأولى فى مدينة المنصورة. له حكاية عجيبة مع أم كلثوم. وقد بدأت بينهما من قبل أن تلتقى بكلمات أشعاره، كما كانت هذه الفنانة العظيمة إلى جانب ذلك، سببا مباشراً فى تقلد صالح جودت لقب «الاستاذ الكبير». وهو لا يزال طالباً فى سن الخامسة عشرة من عمره.. فى مدرسة المنصورة الثانوية!.

ولكن كيف حدث ذلك؟!.. إن صالح جودت نفسه يحكى لنا جانبا مهماً من هذه القصة والتى تعود جذورها إلى أيام شبابه الأولى.. وذلك فى حوار إجرى معه فى عام ١٩٧٣.. قال فيه بالحرف الواحد:

«حينما كنت طالباً فى مدرسة المنصورة الثانوية، قرأت مقالاً فى مجلة الصباح بإمضاء «محمدين».. وهو الكاتب المعروف المرحوم محمد عبد الرزاق.. وكان من كبار الصحفيين فى ذلك العهد. يهاجم فيه أم كلثوم هجوماً قاسياً، ولما كنت ومازالت متعلقا بصوت أم كلثوم، فقد شحذت قلمى الصغير وكتبت مقالاً أدافع فيه عن أم كلثوم وبعثت به إلى المجلة وكنت قليل الأمل فى أن ينشر، ولكن دهشتى كانت بالغة عندما وجدت المقال منشوراً بعنوان ضخم تحته بقلم الاستاذ الكبير صالح جودت..»(١).

ومن المؤكد أن أم كلثوم قد قرأت هذا المقال، خاصة وأنه نشر فى مجلة ثقافية وفنية كانت مشهورة إلى وقت قريب.. والسؤال الذى يفرض نفسه هنا.. وهل كان لهذا الموضوع الخاص بدفاع صالح جودت عن سيدة الغناء العربى، علاقة باختيار الأخيرة كلمات من أشعاره لكى تشدو بها؟!. لا أظن!، ذلك لأن صالح جودت كتب هذا المقال وهو فى سن لم يكن فيها قد أتقن قول الشعر بعد كما أن المقال ذاته ربما نشر فى الأربعينيات، وأم كلثوم غنت أشعاره فى الستينيات!.

(١) مجلة الجديد العدد الصادر فى ١٩٧٣/٦/١٥.

وقد يكون لانتماء شاعرنا صالح جودت للمحافظة التى جاءت منها أم كلثوم دافع آخر.. ربما! ولكن الأهم من كل ذلك.. هو عذوبة ورقة وتفرد وتميز كلمات صالح جودت التى أهلته لكى يكون فى عداد الشعراء العرب المعاصرين من الذين تركوا بصمات واضحة فى عالم الشعر.

هذه المكانة كانت فى الأصل هى الدافع الحقيقى نحو اختيار أم كلثوم لكلمات من أشعاره لكى تشدو بها. سواء فى مجال القصيدة الوطنية أو الدينية.

ولسوف نلمس ذلك بوضوح حين نعيش مع كلمات صالح جودت وألحان رياض السنباطى وصوت كوكب الشرق أم كلثوم. وقد غنت له قصيدتين الأولى بعنوان: «حبيب الشعب».. فى عام ١٩٦٧ والثانية بعنوان: «الثلاثية المقدسة» فى عام ١٩٧٢.

ففى القصيدة الأولى: «حبيب الشعب» قالت سيدة القصيدة العربية:

قم واسمعها من أعماقى فأنا الشعب

إبق فانت السد الواقى لمنى الشعب

ابق فأنت الأمل الباقى لكل الشعب

أنت الخير وأنت النور أنت الصبر على المقدور

أنت الناصر والمنصور

إبق فأنت حبيب الشعب

دُمر للشعب

قم إنا جففنا الدمع وتبسمنا

قم إنا أرهفنا السمع وتعلمنا

قم إنا وجدنا الجمع وتقدمنا

قم للشعب وبدد يأسه ... واذكر غده واطرح أمسه

قم وادفعنا بعد النكسة ... وارفع هامة هذا الشعب

إبق فأنت حبيب الشعب ... حبيب الشعب.. دُمر للشعب

قم لله وقل للعاصى ... رغم الجرح ومر الكأس

وغدا ستأذن فى الناس طلع الفجر ... وغداً ستحى الأجراس يوم النصر
قم إنا أعددنا العدة ... قم إنا أعلنا الوحدة
فارس أنت طريق العودة ... وتقدم يتبعك الشعب
إبق فأنت حبيب الشعب ... حبيب الشعب دُمر للشعب

* * *

وهناك ملحوظة رأينا من الواجب الإشارة إليها.. خاصة وأن أم كلثوم قد شدت بهذه القصيدة فى شهر يونية من عام ١٩٦٧.. وبعد أيام من وقوع النكسة.. وبالضبط حين أعلن جمال عبد الناصر اعتزامه الاستقالة من منصبه.

مما يدل دلالة واضحة على حضور هذا الشاعر وتعبيره الصادق عن أهم ما كان يمر به وطنه الجريح من أحداث جسام!.

وكذلك تدل هذه القصيدة دلالة أخرى على اتجاه أم كلثوم القوى نحو التغنى بالإغنيات الوطنية التى زادت جرعتها بعد وقوع هذه المصيبة.

والمتتبع الواعى لخط سير قصائد وأغنيات كوكب الشرق فى الفترة نفسها وحتى يوم وفاتها.. سوف يلاحظ أن مؤشر إقبالها على القصائد الوطنية قد زاد عن ذى قبل!، كما سوف يلاحظ اختفاء كلمة جمال عبدالناصر من كل ما شدت به.. والاكتفاء فقط بالإشارة إليه عن أنه الزعيم!.

وعلى أيه حال فإننا حين رجعنا إلى ما دونه صالح جودت فى ديوانه الذى شمل هذه القصيدة، وجدنا عدة تغييرات أدخلها الشاعر بنفسه بناء على طلب أم كلثوم يوم لحنها رياض السنباطى. وكان من أهم هذه التعديلات ما وقع للشطر الأول من البيت الثانى الذى قالت فيه أم كلثوم.

إبق فأنت الأمل الباقى
لكل الشعب"

وقد كتبه الشاعر بقوله: ابق فأنت الأمل الباقى
لغد الشعب.

وكذلك فى البيت الذى تقول فيه أم كلثوم:

قل لله وقل للعاصى ... رغم الجرح ومر الكأس

هذا البيت غيرت فيه أم كلثوم لفظين الأول: استبدلت كلمة «الله» بدلاً من كلمة «الشعب» وكذلك كلمة «العاصى» بدلاً من كلمة العصر!.

وأما فى البيت الذى تقول فيه أم كلثوم:

وغداً ستأذن فى الناس طلع الفجر وغدا ستحمى الأجراس يوم النصر

فكان فى الأصل الذى كتبه صالح جودت:

وغداً ستأذن فى الناس طلع الفجر وغدا ستحمى الأجراس يوم النصر

والملحوظة الأخيرة والمهمة هى أن أم كلثوم غيرت كذلك فى عنوان هذه القصيدة حيث أصبح يقول: «حبيب الشعب».. بدلاً مما كتبه المؤلف وكان «دم للشعب»!

* * *

وفى عام ١٩٧٢، وبالضبط فى يوم ٢٥ نوفمبر من عام ١٩٧٢. شدت أم كلثوم بقصيدة «الثلاثية المقدسة».. وهى تأتى ضمن برنامج كوكب الشرق الذى اتبعته بعد هزيمة يونيه وذلك باللجوء إلى الأغنيات والقصائد الدينية إلى جانب القصائد الوطنية. وذلك للتخفيف من وقع صدمة الهزيمة!.

وقصيدة الثلاثية المقدسة قال فيها الشاعر صالح جودت:

رحاب الهدى يا منار الضياء سمعتك فى ساحة من صفاء
تقول: أنا البيت ظل الإله وركن الخليل أبى الأنبياء
أنا البيت قبلتكم للصلاة أنا البيت كعبتكم للرجاء
فضموا الصفوف وولوا الوجوه إلى مشرق النور عند الدعاء
وسيروا إلى هدف واحد وقدموا إلى دعوة للبناء
يزكى بها الله إيمانكم ويرفع هاماتكم للسماء

***

كورس: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

***

يا عطاء الروح من عند النبى وعبيراً من ثنايا يثرب
يا حديث الحرم الطهر الذى يطلع النور به فى اللهب

قم وبشر بالمساواة التى ... ألفت بين قلوب العرب
والإخاء الحق والحب الذى ... وحد الخطو لسير الموكب
والجهاد المؤمن الحر الذى ... وصل الفتح به للمغرب

***

إمة علمها حب السماء ... كيف يبنى ثم تعلو بالبناء
فمضت ترفل فى وحدتها ... وتباهى فى طريق الكبرياء
بيد تسع فى أرزاقها ... ويد تدفع كيد الأشقياء
سادت الأيام لما آمنت ... إن بالإيمان يسمو الأقوياء
فإذا استشهد منهم بطل ... كانت الجنة وعد الشهداء

***

من مهبط الإسراء فى المسجد ... من حرم القدس الطهور الندى
أسمع فى ركن الأسى مريماً ... تتهف بالنجدة للسيد
وأشهد الأعداء قد أحرقوا ... ركنا مشيت فيه خطى أحمد
وأبصر الأحجار محزونة ... تقول: واقدساه يا معتدى
لا والضحى والليل إذا سجا ... وكل سيار به نهتدى
لن يطلع الفجر على ظالم ... مستغرق فى حقده الأسود
سترجع الأرض إلى أهلها ... محفوفة بالمجد والسؤدد
والمسجد الأقصى إلى ربه ... مزدهيًا بالركع السجد
سنشرق الشمس على أمة ... لغير وجه الله لم تسجد

***

وتقول لنا المؤشرات الأولى عن الفروق التى وضحت حين رجعنا إلى الديوان المنشور به قصيدة «الثلاثية المقدسة» أن عدد التعديلات اللغوية أو الكلمات التى غيرتها أم كلثوم قد بلغت ثلاثة عشرة كلمة.. هى بالتفصيل وفق موقعها من الأبيات كالتالى:

فى البيت الأول غيرت أم كلثوم كلمة «رأيتك» واستبدلها بكلمة «سمعتك».. وفى البيت الخامس فى الشطر الأول غيرت كلمة «وقوموا» فاختارت كلمة «وسيروا».. وفى الشطر الثانى اختارت كلمة «وقدموا» بدلا من كلمة.. «وسيروا»..

وكذلك أضافت أم كلثوم كلمات «الكورس» كله.. إذ لم نعثر عليها فى ديوان صالح جودت، وفى المقطع الثانى بعد الكورس غيرت أم كلثوم فى البيت الثانى من هذا المقطع كلمة «يا حديث الحرم» بدلا من «يا ضياء الحرم». وكذلك كلمة «يطلع النور» بدلا من «يشرق النور»!.

ومن المقطع الثالث غيرت أم كلثوم كلمة فى الشطر الأول من البيت الثانى من هذا المقطع.. فاختارت كلمة «وحدتها» بدلا من: «عزتها».. وفى البيت الرابع غيرت كلمة «بالايمان» بدلا من كلمة «بالقوة».

أما فى البيت الأخير من المقطع ذاته فغيرت كلمة «الشهداء» بدلا من «السعداء» فى الشطر الثانى من نفس البيت.

ومن المقطع الرابع تم تغيير كلمة «مهبط» بدلا من «ساحة».. وفى يالمقطع الخامس والأخير من هذه القصيدة غيرت أم كلثوم أربعة كلمات هى كلمة «الصبح» فى البيت الثانى فاختارت بدلا منها.. كلمة «الفجر».. وبدلاً من كلمة «القدس» فى البيت الثالث اختارت كلمة «الأرض». وبدلاً من كلمة «يزخر» اختارت كلمة «مزدهياً». وذلك فى البيت الرابع من المقطع ذاته!.

* * *

وكان علينا بخلاف ما سبق قوله.. ضرورة الوقوف على بعض اللقطات المضيئة فى حياة شاعرنا صالح جودت حتى تكتمل الفائدة المرجوة.. فهو من مواليد ٧ من شهر ديسمبر ١٩١٢.. بمدينة الزقازيق.. وكان والده المهندس الزراعى كمال الدين جودت يمارس عمله فى تلك الفترة بحكم ظروف اختصاصه ووظيفته فى الحكومة المصرية.

ويقول الدكتور فوزى عطوى فى كتابه عن «صالح جودت الإنسان والشاعر».. أن والدته المنتمية إلى أب تركى وأم مغربية رغبت فى أن تدعوه «عبدالرحمن» تيمناً باسم أبيها، فسمى الولد بهذا الاسم.. ولم تجد الأم ممانعة من أحد، لا سيما وأن زوجها كمال الدين كان لحظة ميلاد ولده يعانى سكرات الموت فى مستشفى الزقازيق.

وما هى إلا سبعة أيام على ولادة الطفل صالح حتى تجاوز أبوه مرحلة الخطر فى المستشفى بعد أن بذل الأطباء فى علاجه جهداً كبيراً.. ويغادر الأب مستشفاه إلى المنزل،

حتى إذا تناهى إليه أن الطفل الصغير يدعى «عبدالرحمن» حتى ثارت ثائرته، وقد أصر على أن يدعى ولده «صالح» وذلك تيمنا باسم انسان عزيز عليه، وهو شقيقه المستشار صالح بك جودت.

وفى تعليق لطيف للدكتور فوزى قال: ويبدو أن صالح جودت الذى سيصبح فى مقبلات الأيام اسما يملأ الدنيا ويشغل الناس، قد ورث طبع العراك وإثارة العواصف من أبيه كمال الدين..»[1].

* * *

ولقد سجل لنا الشاعر الراحل صالح جودت.. وكذلك للتاريخ بعض أسطر عن حياته فى إحدى استمارات الاستبيان التى يُعدها مركز المعلومات بأخبار اليوم ـ ومما كتب فى هذه الاستمارة: أنه حصل على ماجستير فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة بتقدير جيد جداً فى عام ١٩٤٩، كما حصل على درجة الزمالة فى دراسات الأمم المتحدة فى نيويورك.

بدأ حياته العملية فى بنك مصر مديراً للدعاية. ثم محرراً فنياً ودبلوماسياً لجريدة الأهرام. ثم رئيساً لتحرير مجلة الاذاعة المصرية. وأخيراً استقر فى دار الهلال فى عام ١٩٤٥ وعمل مديراً لتحرير مجلة المصور ثم رئيساً لتحرير مجلة الاثنين، ثم نائبا لرئيس مجلس إدارة دار الهلال. وله عدة دواوين من أهمها ديوانه الأول: ليالى الهرم فى عام ١٩٣٢ والذى أصدرته جماعة أبو للو..

(١) صالح جودت ـ الشاعر والإنسان.. د. فوزى عطوى.

٩ طاهر أبو فاشا

ست قصائد فى عام واحد!

لا أعرف.. لماذا فضلت أن أبدأ الحديث هذه المرة عن شاعرنا الراحل طاهر أبو فاشا مما كتبه الأديب الكبير ثروت أباظة.. وربما يكون السبب فى ذلك راجعاً إلى إحساسى بأنه أصدق من كتب عن هذا الشاعر الذى شدت سيدة القصيدة العربية وخلال عام واحد فقط بست قصائد له.. وهى تُعد من أروع ما كتب طاهر أبو فاشا وشدت به أم كلثوم.. وبخاصة فى مجال القصيدة الدينية!.

ومما ذكره الأديب ثروت أباظة عن شاعرنا طاهر أبو فاشا قوله: «عرفته منذ قرابة خمسين عاماً وكنت طفلاً وكان يزور والدى ويقرأ له الشعر وكنت أرى البشر والاعجاب على وجه أبى.. ولم اكن فى تلك السن أدرك الشعر الذى يلقيه الاستاذ طاهر على والدى فقد كنت طفلا لم أصل إلى العاشرة من عمرى حتى إذا علت بى السن قليلاً وبدأت أتذوق الشعر.. كنت أرى الإستاذ طاهر فى بيتنا وبدأت أسمع منه فكنت أحس فى الاستماع إليه نشوة واعجاباً ومتعة تزداد كلما ازداد وعيى وحبى للشعر»[١].

أما عن علاقة أم كلثوم بشاعرنا الراحل.. فيقول سجل إغنياتها.. أن سيدة القصيدة العربية قد تغنت بكلمات ست قصائد لطاهر أبو فاشا.. فى فترة بلغت عام واحد فقط.. وهو عام ١٩٥٥ !. ثم عاودت التعاون مع كلمات قصائده.. مرة أخرى فى عام ١٩٥٩.. عندما اختارت له قصيدة وطنية تغنت بها تحية لجيش مصر الذى قاد ثورة يوليو عام ١٩٥٢!.

ويبدو أن خدمة طاهر أبو فاشا بالقوات المسلحة فى هذه الفترة.. قد فرضت على أم كلثوم هذا الاختيار!.

وطاهر أبو فاشا قد سجل لنا وللتاريخ بداية علاقته بأم كلثوم حين أشار فى أكثر من لقاء صحفى أجرى معه.. أن هذه العلاقة بدأت فعلاً من خلال قصائد «أوبريت رابعة العدوية».. والتى لحنها لها كل من رياض السنباطى ومحمد الموجى فى عام ١٩٥٥.

(١) طاهر أبو فاشا ـ ثروت أباظة ـ ديوان طاهر أبو فاشا.. الأعمال الكاملة.

وعلى إثر نجاح قصائد هذا الأوبريت والتى سوف نستعرضها بعد لحظات.. حاول طاهر أبو فاشا إعادة التجربة مع أم كلثوم من خلال كلمات قصائده فى أوبريت جديد كتبه خصيصا لها تحت عنوان «سميراميس» وبتدخل شخصى على حد قوله من الرئيس جمال عبدالناصر.

وقد دفعت أم كلثوم بقصائد هذا الشاعر الجديدة فعلاً للملحن رياض السنباطى. إلا أن الظروف تدخلت وأوقفت هذا العمل من أصله، وبالتالى أصبح رصيد طاهر أبو فاشا الشعرى لدى أم كلثوم قاصراً على هذه القصائد الست التى تغنت بها من خلال أوبريت «رابعة العدوية».. وقصيدته الوطنية «مشى المجد».

وهناك ملحوظة لابد من الإشارة إليها فى هذا السياق.. وهى أن أم كلثوم فيما يبدو قد غنت هذه القصائد الست فى توقيت واحد، كما سجلتها أيضا فى التوقيت ذاته.. وهذا يتضح بسهولة من خلال متابعة متأنية لتاريخ تسجيل القصائد الست المنوه عنها، وبالتالى فقد أصبح من الصعوبة بمكان.. أن نضع أيدينا على القصيدة الأولى التى غنتها أم كلثوم لطاهر أبو فاشا.. ولم يكن أمامنا من سبيل لتحديد هذه البداية سوى الرجوع لسجل أغنيات أم كلثوم والتى وضعته اللجنة الموسيقية العليا فى عام ١٩٧٥.. وفيه إشارة إلى أن أولى هذه القصائد.. كانت قصيدة «عرفت الهوى».. وفق ترتيبها فى صفحات هذا السجل.

ومما لاحظناه كذلك فيما يخص ما تغنت به أم كلثوم بالنسبة لطاهر أبو فاشا.. إن معظم هذه القصائد.. كانت قصيرة إذا ما قيست بقصائد غيره من الشعراء سواء المصريين أو من غيرهم.. ولسوف يتضح ذلك بجلاء حالاً عندما نستعرض كلمات هذه القصائد..

***

ففى قصيدة: «عرفت الهوى».. شدت أم كلثوم بهذه الكلمات:

عرفت الهوى مذ عرفت هواكا ... وأغلقت قلبى عمن عداكا
وقمت أناجيك يا من ترى ... القلوب ولسنا نراكا
أحبك حبين.. حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأمـــا الـــذى أنـــت أهـــل لـــه ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فـــلا الحـــمـــد فـــى ذا ولا ذاك لـــى ... ولـكـن لـك الحـمـد فـى ذا وذاكـا
أحـبـك حـبـيـن.. حـب الـهـوى ... وحـبـاً لأنـك أهـل لـذاكـا
وأشـتـاق شـوقـيـن.. شـوق الـنـوى ... وشـوقاً لـقـرب الخطى من حماكا
فـأمـا الـذى هـو شـوق الـنـوى ... فـمـسـرى الـدمـوع لـطـول نـواكـا
أمـا اشـتـيـاقـى لـقـرب الحـمـى ... فـنـار حـيـاة جـنـت فـى ضـيـاكـا
ولـسـت على الشجو أشكو الهوى ... رضيت بما شئت لى فى هداكا

***

وفى ديوان طاهر أبو فاشا.. نشرت هذه القصيدة مع ملاحظة وجود بعض التعديلات.. كان من أهمها اسم القصيدة وهى بعنوان: «أحبك حبين».. فى حين غنتها أم كلثوم تحت اسم «عرفت الهوى».

كما أشار الشاعر فى هامش هذه القصيدة إلى أن الأبيات من الثالث حتى السادس ليست من تأليفه.. وانما هى أبيات نقلها من أشعار رابعة العدوية.

ولأول مرة نلاحظ أن أم كلثوم تزيد عدد أبيات إحدى القصائد عما نشره الشاعر فى ديوانه، وكانت من قبل تنقص من عدد هذه الأبيات!. إذ كررت أم كلثوم حين شدت، بهذه القصيدة البيت الذى تقول فيه.

أحـبـك حـبـيـن.. حـب الـهـوى ... وحـبـاً لأنـك أهـل لـذاكـا

وقد لاحظنا أن الشاعر لم يكرره فيما نشره بديوانه.. ولذلك جاء عدد أبيات ما غنته أم كلثوم أحد عشر بيتاً. مع أن عددها فى الديوان عشرة فقط!.

* * *

ثم شدت أم كلثوم بالقصيدة الثانية للشاعر طاهر أبو فاشا.. وهى التى قالت فيها:

عـلـى عـيـنـى بـكـت عـيـنـى ... عـلـى روحـى جـنـت روحـى
هـواك وبُـعـد مـا بـيـنـى ... وبـيـنـك سـر تـبـريـحـى
عـلـى عـيـنـى عـلـى روحـى ... فـيـاغـوثـاه.. يـا غـوثـاه
ومـن طـول الـنـوى أواه ... وآه.....آه

صحا من شجوه كأس ... وقد نام الخليونا
فكيف أفر من نفسي ... إذا هام المحبونا
على نفسي جنت نفسي ... فيا ويلاه.. يلا ويلاه
ومن طول النوى آواه ... وآه.....آه
حياتي منك.. يبعدني ... وداعي الشوق يدعوني
ووجه الصبح يخجلني ... ويقتلني ويحييني
وأيامي تقاضيني ... على ما كان يا أسفاه
ومن طول النوى أواه ... وآه.....آه
خلوت إليك يا ربي ... وقلت عساك تقبلني
فما بالي أرى ذنبي ... وأيامي تطاردني
مددت يدي فخذ بيدي ... إليك ومنك يا رباه
ومن طول النوى أواه ... وآه.....آه

* * *

وأيضا التزمت سيدة القصيدة العربية.. بعدد أبيات هذه القصيدة كما كتبها طاهر أبو فاشا ـ ونشرها في ديوانه ـ وقد غيرت أم كلثوم فقط في عنوان القصيدة.. إذ اختارت الكلمة الأولى من البيت الأول كعادتها دائما.. مع أن اسم القصيدة في الديوان: هو «في بحار الندم».. وكذلك غيرت أم كلثوم في لفظ واحد فقط هو كلمة «يدعوني» بدلاً من كلمة «يدنيني».. في البيت الذي تقول في مطلعه:

حياتي منك يبعدني

مع ملاحظة بعض الأخطاء الإملائية والمطبعية فيما يخص ما نشر في كتاب أغنيات أم كلثوم والذي نقلنا عنه هذه الأغنيات.

* * *

ومن أوبريت رابعة العدوية الذي أذيع في عام ١٩٥٥.. غنت أم كلثوم القصيدة الثالثة لطاهر أبو فاشا.. «يا صحبة الراح».. وهي من ألحان رياض السنباطي أيضا.. وفيها تقول:

يا صحبة الراح
أهل الراح هل حانوا
وهل تغنت على أيامها ألحان
صبا الندامى وما في الحان ألحان

فى كأس عمرى بقايا من يشاربنى
ومن يطارحنى والعيش ريحان
ثمالة من دموع الشجو ألوان
إبريقها راح يبكى وهو فرحان
ثمالة آه لو فاضت وآه إذا
غاضت.. وواهًا لها والقلب لهفان
عهدى بها وكئوس الصفو مترعة
بهن طاف على السكرى سكيران
لا يشرب الراح إلا أنه ثمل
نشوان والكأس فى كفيه نشوان
ترى تعود الليالى والهوى معنا
يا غربة الكاس ما للكاس ندمان

ولم تطلب أم كلثوم كعادتها من الشاعر تغيير أية كلمة من كلمات هذه القصيدة!.. وهذا الأمر يترك فى داخلنا علامة استفهام؟!.. لذلك فإن قصيدة ياصحبة الراح».. تعد فعلاً من القصائد القليلة التى لم تغير فيها سيدة القصيدة العربية أية كلمة!.

* * *

ومن نفس الأوبريت وفى العام نفسه غنت أم كلثوم القصيدة الرابعة لطاهر أبو فاشا.. وفيها تقول:

لغيرك ما مدت يدا ... وغيرك لا يفيض ندى
وليس يضيق بابك بى ... فكيف ترد من قصدا
وركنك لم يزل صمدا ... فكيف تزود من وردا
ولطفك يا خفى اللطف ... إن عادى الزمان عدا
على قلبى وضعت يدا ... ونحوك قد مدت يدا
سرى ليلى بغير هدى ... ولا أدرى لأى مدى
يطاردنى الأسى أبداً ... ويرعانى الجوى أبدا
نهارى والهجير لظى ... وليلى والظلام ردى
فواكبداً إذا أضحى ... وإن أمسى فواكبدا
وليس سواك لى سند ... فقدت الأهل والسندا

ومن قبل أن أرجع لديوان طاهر أبو فاشا للوقوف على رأى أم كلثوم من هذه القصيدة التى نشرها تحت عنوان: «لغيرك ما مددت يدا».

ظننت أن سيدة القصيدة العربية لم تجر أية تغيرات عل هذه القصيدة.. مثل القصيدة السابقة.. ولكننى حين رجعت إلى الديوان الذى نشر به طاهر أبو فاشا قصائد أوبريت رابعة العدوية، وخاصة قصيدته المنوه عنها آنفا اكتشفت أن أم كلثوم مارست أسلوبها نفسه السابق فى إجراء العديد من التعديلات والتى كان من أهمها إهمال بيتين من قلب هذه القصيدة وهما اللذان قال فيهما الشاعر:

ويـنـشـر فـى الـهـوى روحـاً ... ويـطـويـنـى الـهـوى جـسـداً
وأطـوى الـبـيـد طـاويـة ... كـأنـى فـى الـفـضـاء صـدى

ولا نعرف السبب الذى دفع بأم كلثوم لإجراء هذا التعديل الكبير فى هذه القصيدة مع أن هذين البيتين يكملان المعنى الذى قصده الشاعر، حين أخذ يتحدث فى صفاء نفس عن وسائله فى التقرب إلى الله رب العالمين.

وعلى فكرة فإن هذه القصيدة وضع ألحانها الموسيقار كمال الطويل.. وبذلك أصبح مشاركاً أصيلاً فى وضع ألحان أم كلثوم سواء الدينية أو الوطنية.. إذ لم يسعده حظه فى تلحين أغنية عاطفية لأم كلثوم!.

* * *

وفى خطوة ذكية من سيدة القصيدة العربية فيما يخص شاعرنا طاهر أبو فاشا.

فقد أشركت أكثر من ملحن.. لوضع الموسيقى لكلمات هذا الشاعر الكبير.. وهذه المرة اختارت الموسيقار محمد الموجى لوضع ألحان قصيدتين من قصائد أوبريت رابعة العدوية».. الأولى قصيدة «أوقدوا الشموس» والتى قالت فيها أم كلثوم:

كـورس: أوقـدوا الـشـمـوس ... انـقـروا الـدفـوف
مـوكـب الـعـروس ... فـى الـسـمـا يـطـوف
والمـنـى قـطـوف ... انـقـروا الـدفـوف

رابعة: [صوت أم كلثوم]

الـرضـا والـنـور ... والـصـبـايـا الحـور
والـهـوى يـدور

آن للغريب ... أن يرى حماه
يومه القريب ... شاطئ الحياة
والمنى قطوف ... فى السما تطوف

انقروا الدفوف

طاف بالسلام ... طائف السلام

يوقظ النيام

عهده الوثيق ... راحة النجاة
أول الطريق ... هو منتهاه
والمنى قطوف ... فى السما تطوف

انقروا الدفوف

وفى ديوان طاهر أبو فاشا نشرت هذه القصيدة تحت عنوان: «عروس السماء».. ودون التقسيم الذى ارتضاه الملحن.. سواء على لسان الكورس أو رابعة العدوية .. وكذلك لاحظنا أن سجل أغنيات أم كلثوم الذى نشر به هذه القصيدة المغناة قد أهمل أحد مقاطع هذه القصيدة.. وإن كنت على يقين من أن أم كلثوم قد شدت وبهذا المقطع ضمن مقاطع هذه القصيدة..

وعلى أية حال فقد أثرت نشر المقطع المنوه عنه وبذلك يكتمل نشر القصيدة التى ألفها طاهر أبو فاشا ونشرها فى ديوانه المنوه عنه.

وكلمات هذا المقطع تقول:

يا حبيب الروح ... تانه مجروح

كله جروح

لانذ بالباب ... شوقه دعاه
والرضا رحاب ... يشمل الصفاة
والمنى قطوف ... فى السما تطوف

انقروا الدفوف

وأما القصيدة الثانية والتى لحنها محمد الموجى من أوبريت «رابعة العدوية» فهى. التى قالت فيها أم كلثوم تحت عنوان «حانة الأقدار».

سألت عن الحب أهل الهوى ... سقاه الدموع ندامى الجوى

فقالوا حنانك من شجوٍ ... ومن جدٍ بك أو لهوٍ
ومن كدر الليل أو صفوٍ ... سل الطير إن شئت عن شدوٍ
ففي شدوٍ همسات الهوى ... وبرح الحنين وشرح الجوى
ولما طواني الدجى والجوى ... لقيت الهوى وعرفت الهوى
ففي حانة الليل خمارٌ ... وتلك النجميات سمارٌ
وهمس النسائم أسرارٌ ... وتحت خيام الدجى نارٌ
وفي كل شيء يلوح الهوى ... ولكن لمن ذاق طعم الهوى

والغريب أننا حين رجعنا إلى الديوان المنشور فيه هذه القصيدة وجدنا تغييراً كبيراً أدخلته أم كلثوم على هذه القصيدة.. ومن أهم هذه التغييرات أن كوكب الشرق أهملت أربعة أبيات كتبها طاهر أبو فاشا في بداية هذه القصيدة والتي يقول فيها:

حانة الأقدار ... عربدت فيها لياليها
ودار السنور ... والهوى صاحي
هذه الأزهار ... كيف نسقيها وساقيها
بها مخمور ... كيف يا صاح!

ليس هذا فقط.. بل إن أم كلثوم قد أهملت المقطع قبل الأخير من ذات القصيدة والتي يقول فيها طاهر أبو فاشا:

ورحت إلى الطير أشكو الهوى ... وأسأله سر ذاك الجوى
فقال حنانك من جمرٍ ... ومن صحو ساقيه أو سكرٍ
ومن نهيه فيك أو أمرٍ ... سلي الليل إن شئت عن سرٍ
ففي الليل يُبعث أهل الهوى ... وفي الليل يكمن سر الجوى

* * *

ويبدو أن وجود الشاعر طاهر أبو فاشا في الجيش في فترة عام ١٩٥٩ كان دافعاً جديداً لتعامل أم كلثوم مع كلمات جديدة من أشعاره.. إذ اختارت سيدة القصيدة العربية قصيدة سادسة من قصائده ولكنها هذه المرة كانت قصيدة وطنية وكان عنوانها أيضا: «الجيش»!. حيث قالت أم كلثوم من خلال كلماتها:

مشى الجد في يومه المرتقب ... وأشرق في عيدٍ ما غرب
فقم حي جيشك جيش العرب ... حمى الزمار وجيش السلام
سلام سلام سلام سلام

بنيناه من مجدنا الغابر وصغناه من دمنا الثائر
أعز من الروح والناظر
طليعة ثورتنا الظافرة وقوة قوتها القاهرة
فيحمى السلام ويرعى الزمام سلام على الجيش فى يومه
وفى كل يوم عليه السلام
تعطر واديك أمجاده وتحظر بالبيمن أعياده
وتحمى العروبة أجناده
إذا جرد السيف من جردا أداروا عليه كئوس الردى
وردوه يعثر فى ظلمه وقد لبث الصبح وجه الظلام
سلام على الجيش فى يومه
وفى كل يوم عليه السلام
سلام سلام سلام سلام
سلوا عين جالوت عن أمسه سلوا أرض سيناه عن بأسه
إذا صرح الهول عن نفسه وكبر للموت من كبرا
ونادى إلى الله أسد الشرى كذلك جيشك فى عزمه
دماه حلال وأرض حرام سلام على الجيش فى يومه
وفى كل يوم عليه السلام
سلام سلام سلام سلام

ومما لاحظناه من تغييرات أجرتها أم كلثوم بالاشتراك مع الملحن رياض السنباطى على هذه القصيدة.. تكرارها لكلمة «سلام سلام سلام سلام».. بعد كل مقطع بدلا من البيت الذى استخدمه الشاعر لنفس الغرض والذى يقول فيه:

مشى الجند فى يومه المرتقب!

* * *

ووفقا لمنهجنا السابق الذى يقوم فى الأساس على تناول الشعر والشاعر.. فقد بقى لنا من هذا الحديث.. حديث آخر عن طاهر أبو فاشا.. لما له من أهمية فى استكمالنا لدائرة المعرفة فوق هذه الأوراق.

لقد حفل كتابه «الأعمال الكاملة» الذى صدر من بعد رحيله بالشىء الكثير عن حياة شاعرنا المتميز. ومما جاء فى مقدمة هذا الكتاب: أنه ولد فى مدينة دمياط فى عام ١٩٠٨ وتخرج فى كلية دار العلوم عام ١٩٤٠ ثم توفى فى ١٢ مايو على ١٩٨٩.

وترك لنا طاهر أبو فاشا ستة دواوين من الشعر هى: صورة الشباب ـ الأشواك ـ الفتيارة السارية ـ راهب الليل ـ الليالى ـ دموع لا تجف، كما أصدر الشاعر دواوينه الثلاثة الأولى فى أعوام ١٩٢٨ و ١٩٣٢ و ١٩٣٨ وفيها تشعر كما يقول خليل جبران عنه فى مقدمة ديوانه «الأشواك»: أنه شاعر بلاريب مجدد من طراز الذين لا يعوزهم قوة الديباجة وجمال العبارة».

وبعد صدور هذه الدواوين الثلاثة جذبته الإذاعة فوقف نفسه عليها واستنفد نشاطه وطاقته الإبداعية فى التأليف لها، وبالتالى انصرف عن قول الشعر إلا بين الحين والحين.. حينما كانت تفرض عليه التجربة الشعرية نفسها.

وقد استمر طاهر أبو فاشا يقدم للإذاعة إنتاجه الأدبى الذى تمثل فى البرامج التمثيلية والغنائية وكان على رأسها «ألف ليلة وليلة» ـ وألف يوم ويوم[1].

(١) عبدالعليم عيسى ـ ديوان طاهر أبو فاشا الأعمال الكاملة ـ عام ١٩٩٢.

١٠ كامل الشناوى

وقصيدة واحدة فقط!

هذا الرأى الذى سوف ندلى به حالاً.. نقوله على مسئوليتى الخاصة.. وعلى المتضررين اللجوء إلى شياطين الشعر!.. فقد حرصت أم كلثوم على أن تتعامل مع كلمات الشاعر الراحل كامل الشناوى.. خاصة الوطنية منها.. تحت ضغطين.. الأول كان مصدره أخيه الصغير مأمون الشناوى الذى أبدع لأم كلثوم مجموعة من الأغنيات العاطفية صاحبة الصيت العالى.. والمصدر الثانى: هو مصطفى أمين.. صديق كامل الشناوى وأحد الذين عاشوا تجربته مع الشعر والصحافة والحب والرحيل، وكانت أم كلثوم لا تؤخر كلمة واحدة أو طلب لمصطفى أمين.. أحد أصدقائها المقربون!.

ففى عام ١٩٦٤ غنت سيدة القصيدة العربية رائعة كامل الشناوى «على باب مصر».. والتى تعد من القصائد الوطنية الجميلة.. التى تحمل فى كلماتها معان عظيمة وسامية.. تستحق التأمل والدراسة..

وتقول كلمات هذه القصيدة:

على باب مصر تدق الأكف ويعلو الضجيج
رياح تثور جبال تدور بحار تهيج
وكل تساؤل فى دهشة وكل تساؤل فى هلفة
أين.. ومن.. وكيف.. إذن
أمعجزة ما لها من أنبياء
أدورة أرض بغير فضاء
وتمضى الكواكب بالقادمين من كل لون وكل مجال
فمن عصر مينا إلى عصر عمرو ومن عصر عمرو لعصر جمال

وكيف تحقق ما كان وهما ... ومن ذا الذى يا ترى حققه
وكيف تحرر من أسره ... سجين الزمان من أطلقه
لقد شاد بالأمس أهرامه ... بأيد مسخرة موثقة

وهـا هـو يـبـنـى بـحـريـة ... دعـائـم آمـالـه المـشـرقـة
بـسـد مـنـيـع عـجـيـب الـبـنـاء ... يـبـث الـرخـاء ويـوحـى الـثـقـة
فـأزراق أبـنـائـه حـرة ... وحـريـة آرائـه المـطـلـقـة
ولـيـس لـهـم سـيـد أو مـسـود ... فـكـل سـواد بـلا تـفـرقـة
أمـعـجـزة مـالـهـا مـن أنـبـيـاء ... أدورة أرض بـغـيـر فـضـاء
وصـاح مـن الـشـعـب صوت طـلـيـق ... قـوى أبـى عـمـيـق عـريـق

يقول: أنا الشعب والمعجزة

أنا الـشـعـب لا شـىء قـد أعـجـزه ... وكـل الـذى قـالـه أنجـزه
فـمـن أرضـى الحـرة الـصـامـدة ... صـنـعـت حـضـارتـنـا الخـالـدة
بـقـومـيـتـى واشـتـراكـيـتـى ... بـنـبـض الـعـروبـة فـى إمـتـى
أنـا الـشـعـب لا أعـرف المـتـسـحـيـلا ... ولا أرتـضـى بـالخـلـود بـديـلا
بـلادى مـفـتـوحـة كـالـسـمـاء ... تـضـم الـصـديـق وتـمـحـو الـدخـيـلا
أنا الـشـعـب.. شـعـب الـعـلا والـنـضـال ... أحـب الـسـلام أخـوض الـقـتـال
ومـنـى الحـقـيـقـة ومـنـى الخـيـال ... وعـنـدى الجـمـال وعـنـدى جـمـال

* * *

وواضح من خلال قراءة متأنية لهذه القصيدة أن كامل الشناوى قد كتبها فى ظروف سياسية معينة، وقد ارتبطت هى الأخرى إلى حد بعيد باخط الاشتراكى الذى كان قد اتخذه جمال عبد الناصر منذ أوائل الستينيات!.

والغريب فيما لاحظناه أن كامل الشناوى قد طعم هذه القصيدة بكلمات صريحة عن جمال عبدالناصر!. وعن جهوده عربيا ومحلياً!، وكذلك كانت أم كلثوم قد تغنت بهذه القصيدة قبل رحيل شاعرنا بأقل من عام واحد!!

وبالرجوع إلى الديوان الوحيد الذى نشر به كامل الشناوى كل قصائده العاطفية وغير العاطفية والذى صدر تحت عنوان «لا تكذبى» عثرنا على هذه القصيدة بعنوان «أنا الشعب».. وليس بالعنوان الذى اختارته أم كلثوم وهو «على باب مصر».

وكذلك لاحظنا وجود تغييرات جوهرية كثيرة أدخلتها أم كلثوم والموسيقار محمد عبدالوهاب على هذه القصيدة.. سواء من حيث الحذف أو التعديل والتبديل ويتضح ذلك مما يأتى:

فقد بدلت أم كلثوم مكان كلمتى «جبال تدور» حيث وضعتهما فى مكان كلمتى «رياح تثور»!. إذا اختار الشاعر الكلمتين الأوليتين حيث افتتح بهما شطر بيته الأول.. بينما عكستهما أم كلثوم حين غنت القصيدة!.

بل واستغنت أم كلثوم عن بعض الأبيات التى قال فيها كامل الشناوى بعد البيتين الأول والثانى:

ونصغى ونصغى!!..

فتسمع بين الضجيج سؤالاً وأى سؤال

وتسمح همهمة كالجواب وتسرع همهمة كالسؤال

وكذلك غيرت فى البيت الذى قالت فيه:

وكل تساؤل فى دهشة وكل تساؤل فى لهفة

أين ومن وكيف إذن!.

كما حذفت أم كلثوم أبياتاً أخرى من هذه القصيدة. وهى التى قال فيها الشاعر:

نعم.. كيف أصبح هذا الجلال بأقصى مداه

حقيقة شعب غزاه الطغاة وأى طغاه

***

هذا عن المقطع الأول مما غنته أم كلثوم.. سواء بعد الحذف أو قبله.. وأما بالنسبة للمقطع الثانى.. فقد استغنت فيه أم كلثوم كذلك عن أبيات بعينها.. كتبها كامل الشناوى وهى التى يقول فيها:

وجاء الغزاة جميع الغزاة فأبدوا خشوعاً وأحنوا الجباة

وتلمع بين الجموع وجوها يرف عليها حنان الإله

ففيها المفكر والعبقرى وفيها الفتاة وفيها الهداة

فموسى تشق عصاه الزحام وذلك عيسى عليه السلام

وهذا محمد خير الأنام أمعجزة ما لما أنبياء

أدورة أرض بغير فضاء

ثم عادت أم كلثوم لتصل ما انقطع من كلمات كامل الشناوى فيما شدت به.. عندما بدأت هذا المقطع بقولها:

وكيف تحقق ما كان وهماً ومن ذا الذى يرى حقه؟!

مع أنها أغلقت من وسط هذه الأبيات وفق التسلسل الذى اختاره الشاعر بيت قال فيه كامل الشناوى:

على ظهره بصمات السياط وأحشاؤه بالطوى مرهقة

كما استبدلت كلمة «بنيت».. فى البيت الذى تقول فيه:

فمن أرضى الحرة الصامدة صنعت حضارتنا الخالدة

واختارت بدلا منها كلمة «صنعت»!. كما هو مبين فى البيت السابق.

وحتى فى هذا المقطع استغنت أم كلثوم عن بيتين هما اللذين قال فيهما كامل الشناوى:

أنا الشعب، شعب الذرى والقمر

زرعت النخيل، صنعت الهرم

رفعت المآذن فوق القباب

بنيت المداخن تعلو السحاب

والملاحظة المهمة والواجب الإشارة إليها.. هنا أن أم كلثوم وموسيقارنا الكبير محمد عبدالوهاب قد نجحا نجاحاً باهراً فيما أدخلوه من اختصارات فى أبيات هذه القصيدة.. إذ اختاروا أهم ما فيها.. سواء من حيث المعنى أو الأداء!. ولقد ثبت لنا هذه الملاحظة كحقيقة.. عندما أعدنا قراءة القصيدة وفق ما تغنت به أم كلثوم.. فلم نشعر بأية تغيرات.. وقد أخلت بالقصيدة أو بنائها، وتلك هى العبقرية سواء فى الأداء أو فى التلحين.

* * *

وكامل الشناوى صاحب هذه القصيدة.. هو بالفعل حدوة مصرية بانت ملامحها واضحة فى عدة مجالات سواء أدبية أو صحيفة أو فكرية وكانت نشأته الدينية الأولى لاشك وراء كل ذلك. إذ أراد والده بعدما ألحقه بالأزهر أن يسير على دربه حتى يصبح مثله قاضيا شرعياً، ولكن خاب ظن ذلك الوالد.. فقد تحول كامل الشناوى من الزى الأزهرى إلى زى آخر تماماً، قذف به فى قلب شارع عماد الدين ومن بعده إلى شارع الصحافة.

وتلك لمحات سريعة عن حياة هذا الشاعر العبقرى.. وقد حفلت بها كتب كثيرة. ومما

كتب فى هذا الشأن قول المؤرخ لمعى المطيعى فى سلسلة مقالاته الرائعة «هذا الرجل من مصر» .. أنه يدعى مصطفى كامل الشناوى بن سيد سيد أحمد الشناوى. ولد فى يوم الاثنين ٧ ديسمبر عام ١٩٠٨ فى قرية «نوسة البحر» مركز «آجا» بالدقهلية .. وجاء مولده عقب رحيل الزعيم مصطفى كامل فأسماه والده مصطفى كامل. كما كان بديناً ولم تكن بدانته مصدر تعاسة له وإنما استطاع أن يجعلها مصدراً للمرح.

ولما كان والده قاضيا شرعياً لمحكمة مركز «أجا». أدخل ابنه كامل الأزهر، لكنه لم يستمر فيه سوى خمس سنوات، اتجه بعدها إلى دار الكتب يجعل منها جامعة له يطالع فيها مختلف فروع المعرفة.

ولما كان يجيد اللغة العربية عمل مصححاً فى عدة جرائد بدءاً من عام ١٩٣٠، ثم عمل محرراً بجريدة الأهرام فى عام ١٩٣٥ .. وكان آنذاك يكتب فى صحف الاثنين والمصور وآخر ساعة التى رأس تحريرها فى عام ١٩٤٣ ..

وكذلك انتخب عضوا فى مجلس النواب عام ١٩٤٥ .. وانتقل إلى أخبار اليوم فى عام ١٩٤٥ ومنهما إلى الجريدة المسائية فى عام ١٩٤٩ .. ثم عاد إلى جريدة الأهرام رئيسا لقسم الأخبار فى عام ١٩٥٠ . كما تولى رئاسة تحرير جريدتى الجمهورية والأخبار..

وتوفى فى يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر فى عام ١٩٦٥ . اشتهر بين زملائه بأنه كان أخر ظرفاء عصره لتميزه بالنكته الضاحكة والقفشات والمقالب الصحفية.

١١ محمد الأسمر

قصيدة للجامعة العربية

تعتبر قصيدة «زهر الربيع» لشاعرنا الكبير محمد الأسمر والتى شدت بها كوكب الشرق أم كلثوم.. من القصائد التاريخية.. أو بمعنى أخر من قصائد الشعر العربى التى ارتبطت بحدث هام من أحداث العرب التاريخية، إذ شدت بها أم كلثوم أمام أول تجمع عربى للزعماء.. سواء من الملوك أو من غيرهم من الذين حضروا توقيع ميثاق جامعة الدول العربية فى عام ١٩٤٥.

ولقد أرادت سيدة القصيدة العربية بهذا الاختيار أن تبرهن لكل الأمة العربية على أنها أصبحت مثل جامعتهم العربية السياسية، جامعة أخرى فنية وكانت أم كلثوم بذلك أول فنانة فى تاريخنا الحديث.. تشارك فى صنع حدث سياسى مهم.. مثل إنشاء جامعة الدول العربية.

وكذلك أصبح شاعرنا محمد الأسمر من هؤلاء الشعراء الذين لعبت كلمات قصائدهم الدور الرائد فى لم شمل الأمة العربية.. منذ أكثر من خمسين عاماً!. ليس على مستوى المناسبات القومية فقط.. بل وفى التغنى بأمجاد هذه الأمة وبيان أصول حضارتها عبر التاريخ.

ولقد سبق الحديث من جانبنا سواء عبر هذه الأوراق أو غيرها من أوراق كتبنا السابقة عن هذا الدور الوطنى الكبير الذى لعبته أم كلثوم على المستويين الوطنى والعربى.. لذلك فهى ليست بحاجة إلى المزيد.. وكتابنا «تاريخ مصر يكتبه أهل الفن» فيه الشىء الكثير عن مواقف هذه الفنانة العظيمة ومواقف غيرها من فنانى مصر والعرب.. خاصة من أحداث تاريخنا الوطنى والقومى.

* * *

وأما عن كلمات قصيدة «زهر الربيع» لأم كلثوم.. فتقول التفاصيل المنقولة عن كتاب الأعمال الغنائية الكاملة لأم كلثوم.. أن ما شدت به سيدة القصيدة العربية هى الكلمات التالية:

زهرى الربيع يرى أم سادة نجب ... وروضة أينعت أم حفلة عجب!!
تجمع الشرق فيها مؤتلف ... كالعقد يلمع فيه الدر الذهب
كفاه أن يد الله تنظمه ... وأنه أمل للشرق مرتقب
بنى العروبة هذا النصر كعبتنا ... وليس فيه من الحجاج مغترب
عجبت للنيل يطفى كل ذى لهب ... يكاد من نفحات الشوق يلتهب
حيا كم وهو جذلان وقال لكم ... إن العروبة فيما بيننا نسب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب.

* * *

وعلى الرغم من حساسية المناسبة القومية التى شدت من أجلها أم كلثوم هذه القصيدة إلا أنها والملحن الكبير زكريا أحمد.. لم يخشيا أى تغيير أو تعديل قد أدخلاه على القصيدة!.

ولسوف نتعجب حين نعرف أن هذا التغيير قد شمل كلمات تخص إلى حد بعيد الملك فاروق. الذى كان حاضراً هذا الحفل.. بل وكان يقام أيضا داخل قصر عابدين مقر حكمه.

فقد استبدلت أم كلثوم كلمة «الفاروق» فى البيت الثالث.. واختارت بدلاً منها كلمة «الله».. حيث كتب الشاعر محمد الأسمر الشطر الأول من هذا البيت هكذا.

كفاه أن يد الفاروق تنظمه[1].

ليس هذا فقط.. بل إن أم كلثوم حذفت بيتا بكامل كلماته من هذه القصيدة وفيه حديث صريح عن الملك فاروق أيضا!.

إذ قال فيه الشاعر:

هو السماء وفاروق به قمر ... وأنتم فى السماء السبعة الشهُب

وهذا يعنى أن كوكب الشرق.. قد شدت فقط بسبعة أبيات من هذة القصيدة.. مع أن عدد أبياتها فى الديوان المنوه عنه ثمانية أبيات! ولم تكتف أم كلثوم بهذه التغييرات.. بل أضافت إليها.. تغييراً آخر فى عنوان القصيدة.. من «فرحة الشرق» إلى «زهر الربيع»! وتلك سمة دائمة لاحظناها فى كل ما تغنت به أم كلثوم من قصائد سواء من الشعر القديم أو الحديث!.

(١) ديوان محمد الأسمر ـ الصادر عام ١٩٥١.

ولقد ذكر لنا الشاعر المناسبة التى ألف فيها هذه القصيدة عندما قال فى مقدمة صغيرة كتبها أعلى قصيدة «فرحة الشرق» : «حينما وقع مندوبو الأمم العربية المثياق العربى وكان ذلك سنة ١٩٤٥ أقيمت لهذه المناسبة حفلة كبرى بسراى عابدين، وقد شرف هذه الحفلة جلالة الملك فاروق.. والقصيدة الآتية المعروفة باسم «فرحة الشرق» نظمت لتحية ممثلى العروبة وقد غنتها فى هذه الحفلة الآنسة أم كلثوم ولحنها الأستاذ زكريا أحمد، والذى اقترح على الشاعر نظمها هو المغفور له صاحب المقام الرفيع أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى، وهو الذى اقترح أن يكون آخرها بيت حافظ بك إبراهيم المذكور فى آخر القطعة»(١).

* * *

ومما لاحظناه كذلك.. أن هذا الديوان.. قد اشتمل على بيان طيب لسيرة حياة هذا الشاعر.. وقد جاء فيه: ولد الشاعر محمد الأسمر فى مدينة دمياط فى يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر عام ١٩٠٠.. وقد كتب عن ميلاده صديقه قاسم مظهر يقول: «تحت سماء دمياط الساحرة وعلى أرضها الصافية الجمال، ولد الشاعر النابغ محمد الأسمر، وقد استمد من جمال بلدته وخضرتها دماثة الخلق ووداعة النفس وطيبة القلب».

التحق الشاعر فى طفولته بمكتب من المكاتب الخاصة بتحفيظ القرآن الكريم بدمياط لكنه لم يلبث به إلا قليلا، ثم التحق وهو فى الثامنة من عمره تقريبا بإحدى المدارس الأهلية بالمدينة، وكان من العلوم التى يتلقاها فى هذه المدرسة القرآن الكريم حيث حفظ نصفه، وكذلك بعض المحفوظات الأدبية شعراً ونثراً والنحو والإملاء والحساب.

وكانت هذه المدرسة تعد من يتخرج منها ليكون كاتبا حسابيا بإحدى المحلات التجارية، وتخرج محمد الأسمر من هذه المدرسة فى عام ١٩١٤ وزاول التدريس بها شهوراً ثم قام بعمل كتابى فى إحدى المحلات التجارية برأس البر مدة المصيف ـ ثم عاود بعد ذلك ممارسة مهنة التدريس بالمدارس الأهلية إلى جانب مزاولة الكتابة الحسابية بالشركات التجارية.

بعد ذلك التحق بمعهد دمياط الدينى طالبا فى عام ١٩١٥.. بعدها التحق بمدرسة القضاء الشرعى بالقاهرة فى عام ١٩٢٠، وظل بها ثلاث سنوات ومن بعدها التحق

(١) المصدر السابق.

شاعرنا الأسمر بالأزهر الشريف الذى تخرج منه فى عام ١٩٣٠ ، وظل يعمل حتى عين أمينا للمحفوظات بالمعاهد الدينية، كما وكلت إليه مشيخة الأزهر لتنظيمها .. ثم عين معاونا بمكتبة الأزهر ثم أمينا لهذه المكتبة.

وقد انتدب وهو أمين مكتبة الأزهر للعمل بوزارة الداخلية فى قسم مراجعة الكتب، كما اختير مرتين عضوا فى لجنة النصوص بالإذاعة، وفى عام ١٩٥٦ اختير عضواً بلجنة الشعر الخاصة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب.

وتقول سيرة حياة محمد الأسمر أن الصحف المصرية كانت تنشر له إبداعاته فى الشعر وهو لا يزال طالبا بالسنة الثانية بمعهد دمياط الدينى ثم تتابعت ذلك إشراقاته فى الشعر فألف العديد من القصائد سواء الدينية أو الوطنية، وقد خلف وراءه عدة أعمال كان من أهمها ديوانين .. الأول هو «تغريدات الصباح» وهو أول مجموعة شعرية وكتب مقدمة هذه المجموعة أنطون باشا الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام .. ثم «ديوان الأسمر» الذى صدر على ١٩٥٠ .. وكذلك له كتاب فى النثر بعنوان «مع المجتمع».

١٢ الشيخ عبدالله الشبراوي

وحقك أنت المنى والطلب

فى السيرة الذاتية للشيخ الأمام عبدالله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر لاحظنا اهتمام المؤرخين بحياته كشاعر أكثر منه كشيخ للجامع الأزهر!! الأمر الذى يجعلك تشعر بأن هذا الشيخ الامام كان يولى اهتماماً كبيراً بالشعر وبالأدب، أكثر من اهتمامه بالعمل فى مشيخة الأزهر..

بل وأكثر من ذلك كان الشيخ الشبراوى يكتب أشعاراً عاطفية فى غاية الرقة، مما جعل الكثيرون من مطربى أهل زمانه يقبلون على التغنى بكلمات أشعاره! حتى شهدت السنوات الأولى للقرن العشرين تواجداً كبيراً للشيخ الشبراوى داخل مقاهى ومسارح الأزبكية.. وذلك من خلال ما كان يكتبه من أشعار يتغنى بها كبار المطربين آنذاك.

والدليل على ذلك أن سيدة القصيدة العربية أم كلثوم قد اختارت قصيدة من أروع ما كتب الشيخ الإمام وأروع ما غنت فى بداية مشوار حياتها الفنية بدءاً من عام ١٩٢٥! وهى قصيدة «وحقك أنت المنى والطلب»، التى اختارها أيضا الشيخ أبو العلا محمد من قبل لكى يلحنها ويغنيها بصوته!.

ومما قيل فى شأن الشيخ عبدالله الشبراوى الإمام السابع للجامع الأزهر.. بخصوص حبه للأدب وكتابة الأشعار لكبار المطربين فى عصره.. ما ذكره الأديب والمؤرخ محمد سيد كيلانى حين قال: «لقد شب على حب الموسيقى والغناء فكان ينظم المقطوعات الغنائية الرقيقة ويتغنى بها.. وأقبل المغنون عليه يلتمسون منه الأغانى العاطفية فأجاب رغبتهم.. فانتشرت أغانيه بين العامة والخاصة وأرباب الفن وأولاد البلد».

وأما بالنسبة لعلاقته بأم كلثوم.. فقد بدأت فى عام ١٩٢٦.. حين شدت بكلمات قصيدته الرائعة «وحقك أنت المنى والطلب» والتى قالت فيها بألحان الشيخ أبو العلا محمد:

وحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك يا هاجرى صبوة ... تحير فى وصفها كل صب
أبيت أسامر نجم السما ... إذ لاح فى الدجى أو غرب
وأعرض عن عازل فى هواك ... إذا غربا منبتى أو عتب
أمولاى بالله رفقا بمن ... إليك بذل الغرام انتسب
ويا هاجرى بعد ذاك الرضا ... بحقك قل لى لهذا سبب
فإنى حسيبك من ذا الجفا ... ويا سيدى أنت أهل الحسب
منى يا جميل المحيا أرى ... رضاك ويذهب هذا الغضب
فإنى محب كما قد عهدت ... ولكن حبك شىء عجب
ومثلك ما ينبغى أن يصد ... ويهجر صبا له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع ... فيأخذنى عند ذاك الطرب
ويعجبنى منك حسن الوقار ... ولين الكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح ... الكريم الجدود العريق النسب
أما والذى زان منك الجبين ... وأودع فى اللحظ نبت العنب
وأنبت فى الخد روض الجمال ... ولكن سقاه بماء اللهب
لإن جدت أو جرت أنت المراد ... ومالى سواك مليح يحب

ويقول كتاب «النصوص الكاملة لجميع أغنانى أم كلثوم» الصادر عن اللجنة الموسيقية العليا.. أن سيدة القصيدة العربية قد تغنت بهذه الكلمات فى عام ١٩٢٨ كما سُجلت فى العام نفسه على أسطوانة جرامفون.

* * *

وكعادتنا فيما سبق وسلكناه مع كل ما تغنت به أم كلثوم رجعنا فوراً للديوان والذى نشرت به هذه القصيدة.. وبصعوبة بالغة عثرنا على ديوان الشيخ عبدالله الشبراوى بدار الكتب المصرية ـ وهو مطبوع فى عام ١٩٢٢ .. وكتبه العالم العلامة الحبر الفهامة الشيخ عبدالله ابن محمد الشبراوى كما جاء فى الغلاف الأول للديوان المشار إليه وذلك تحت حرف الباء الموحدة، وقد سبقها تحت هذا الحرف قصيدة قالها أثناء زيارته لقبر الرسول ﷺ..

والشاعر عبدالله الشبراوى قال ذلك بنفسه حين قدم هذه القصيدة: «قال أطال الله بقاءه وقلت أيضا متوسلاً به ﷺ حين حججت ووجهتى قبره الشريف سنة إحدى وثلاثين ومائة ألف»، وفى مقدمة القصيدة التى غنتها أم كلثوم والتى نشرت بالديوان المنوه عنه ـ كتب الشبراوى يقول: «وقال آدام الله العلا وقلت أيضا متغزلاً..».

ومما لاحظناه حين الرجوع لأصل هذه القصيدة وفقا لما هو موجود فى الديوان المشار إليه. أن أم كلثوم قد التزمت إلى حد بعيد بكل كلمات هذه القصيدة بلا أدنى تغيير.. وإن كانت قد استغنت عن بيت واحد فقط.. وهو الذى قال فيه الشاعر.

أشاع العزول بأنى سلوت وحقك يا سيدى قد كذب

وقد غنت أم كلثوم ستة عشرة بيتا من أصل سبعة عشرة. ولا نعرف سببا واضحاً لإهمال أم كلثوم للبيت السابع.. وكذلك لا نعرف سبباً واحداً لعدم لجوئها لتغيير بعض كلمات هذه القصيدة؟!!. مع أن بالقصيدة كلمات صعبة.. وغير مفهومة..

وربما إقبال الشيخ أبو العلا محمد أستاذها الأول آنذاك على التغنى بهذه الكلمات بدون تحريف.. كان هو السبب الأول والرئيسى وراء عدم إجرائها أية تعديلات.. وما يؤكد لدينا ذلك.. هو أن ملحن هذه القصيدة هو الشيخ أبو العلا نفسه.

* * *

هذا عن القصيدة.. فماذا عن الشاعر؟! إن الكلمات القادمة حتما سوف تلقى بعض الأضواء المبهرة على حياة هذا الشاعر الذى تولى يوما ما مشيخة الجامع الأزهر. وكان ترتيبه بين من تولى هذه المشيخة رقم سبعة، واسمه بالكامل الشيخ عبدالله بن محمد ابن عامر الشبراوى وهو لذلك يعد أحد الثلاثة الكبار الذين تولوا مشيخة الأزهر.

ولد الشبراوى فى مدينة القاهرة فى عام ١٠٩١هـ ـ ١٦٨٠م.. وجاء فى كتاب «شيوخ الأزهر ولمحات عن نظامه المعاصر» أن الشيخ الشبراوى كانت له مكانة علمية وأدبية عند الحكام والعلماء، وقد سجل أحداث عصره نثراً وشعراً، وكان كذلك من أعلام مذهب الشافعية. وترك مؤلفات كثيرة يدور معظم موضوعاتها حول الأدب والبلاغة والنحو.. كما أنه له أشعار كثيرة قالها فى مدح الأشراف ولا سيما سيدنا الحسين رضى الله عنه.. توفى الشيخ الشبراوى فى عام ١١٧١هـ..

ويقول بعض المؤرخين إن هذا الشاعر الكبير استطاع أن يعيش حياة خاصة فى فترة الشباب داخل الأماكن التى كانت ترخر آنذاك بالفنون ـ مثل حديقة الأزبكية وحدائق الروضة. وقد استهوته الموسيقى والغناء، مما ساعد كثيراً فى اقترابه من عالم الفن والأدب.

وفى كتاب «تاريخ الأزهر فى ألف عام». كتبت الأديبة سنية فراعة.. عن الشاعر الشبراوى تقول إنه من مواليد عام ١٦٨٠ م كان قد تلقى تعليقه الأولى حتى فى رحاب الأزهر.. كما كان يجالس كبار العلماء فى عصره وأخذ عن معظمهم. كما تتلمذ بشكل خاص على يد الشيخين الجليلين.. القليني والفيومى.. وكانت هوايته اقتناء الكتب النفيسة..

وأضافت سنية قراعة صاحبة كتاب تاريخ الأزهر. أن الشيخ عبدالله الشبراوى.. ومن بعد رحيله قد خلف وراءه كثير من الآثار فى مختلف العلوم من أهمها: كتابه «مفاتيح الألطاف فى مدائح الأشراف» وهو ديوان شعر.. وشرح الصدور فى غزوة بدر، وعنوان البيان ونسيان الأذهان فى البلاغة[١].

(١) تاريخ الأزهر فى ألف عام ـ سنية قراعة.

١٣ محمد مصطفى الماحى

قصيدة لم ينشرها فى ديوانه!

فى حوار طال وتشعب فى أكثر من اتجاه عن هؤلاء الشعراء الذين يضطرون لكتابة إحدى قصائدهم لأجل مناسبة بعينها .. أكد الشاعر أحمد سويلم أن هناك العشرات من الشعراء سواء من مصر أو من غيرها من الذين ينفعلون ببعض الأحداث الوطنية أو القومية فيكتبون معبرين عنها.. وقد تكون هذه القصائد فى تصورهم لا ترقى لمستوى النشر فى الدواوين، لإحساسهم بأن كلمات هذه القصائد تحمل بين طياتها معانى وقتية وانفعالات تزول بزوال الحدث نفسه!.

وكذلك اكتشفنا هذا الأمر بوضوح أكثر فى مجال القصائد المغناة! إذ خصص صنف من الشعراء من الذين يكتبون بعض قصائدهم لكى يتغنى بها المطربون فى مناسبات بعينها من دون نشرها فى ديوان.

ولقد سبق لنا أن قابلنا هذه القضية مع أكثر من شاعر من الذين تعاملت معهم سيدة القصيدة العربية أم كلثوم سواء من الشعراء المصريين أو من غيرهم. ورغم ما عانيناه من جراء الحصول على هذه الدواوين للبحث فيها عن هذه القصيدة أو تلك..، إلا اننا فعلاً كنا نفاجئ بهذه الحقيقة الصعبة وكنا نستسلم لذلك ونكتب القصيدة المعنية والتى تغنت بها أم كلثوم من دون الإشارة إلى ما أصابها من تبديل وتعديل.. حتى جاء حديثنا مع الشاعر أحمد سويلم الذى أكد لنا هذه النظرية، وبالتالى استراح الضمير.

وهذه المرة أيضا فاجأنا الشاعر الكبير محمد مصطفى الماحى الذى لم ينشر القصيدة التى غنتها أم كلثوم من كلماته فى عام ١٩٥٦ تحت عنوان: «الفجر الجديد».. فى ديوانه المنشور بعنوان «ديوان الماحى» والمطبوع فى عامى ١٩٥٧، وبالتالى بات علينا أن نتوقف فقط أمام نص القصيدة المعنية من دون الإشارة إلى ما أصابها من تعديلات، وربما كذلك لم يصبها ذلك التعديل، الذى تعودت على إدخاله أم كلثوم مع أغلب من تعاملت معهم من الشعراء.

ويبدو أن أم كلثوم لم تسجل هذه القصيدة على أسطوانة ولا غنتها فى حفل عام.

وانما وكما هو واضح من مدلول كلماتها أنها قد تغنت بها بمناسبة العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦.. وفيها ألفاظ عديدة ذكرها الشاعر متغنياً بالزعيم جمال عبدالناصر..

وتقول كلمات هذه القصيدة.

من أطلع الفجر الجديد على ربى تلك الربوع الناضرة
فى القاهرة فى كل أوطان الشعوب الثائرة
هو صانع التاريخ فى أيامنا هو مشرق الآمال فى أحلامنا
هذه خطاه على الطريق تقودنا
لم تعطنا الدنيا سواه ولا نريد لها سواه
شدت يداه لنا الصباح من الدجى سلمت يداه

يا مصر يا وطن العروبة يا منار الثائرين
يا مهد كل حضارة يا دار كل الخالدين
فجر الحقيقة أطلقيه وقبليه وعانقيه
وخذى فتاك إلى حماك إلى علاك وسائليه
كيف استفاق الدهر ينشر فى حمى كفيك شعره
كيف التقى الوطن الكبير بوحدة أنسته بعده
كيف استطاع فتاك أن يلقى بقلب الظلم رعده
وفتاك عبدالناصر يطلب الكفاح الظافر

لم تعطنا الدنيا سواه ولا نريد لها سواه
شدت يداه لنا الصباح من الدجى سلمت يداه

***

وحسناً فعل شاعرنا الكبير محمد مصطفى الماحى.. عندما رفض أن يضم ديوانه الجميل هذه القصيدة التى يبدو من ظاهر كلماتها أنها كتبت خصيصاً لمناسبة بعينها.. فى إطار ما كانت تقدم عليه أم كلثوم لاسترضاء عبدالناصر فى فترة تثبيت الوجود مع الثورة.

ولسوف يمر علينا وكما سبق وأشرنا فى أكثر من مكان.. أنها قد طلبت ذات الطلب من شاعرنا الكبير بيرم التونسى ـ والذى كتب لها أغنية «يا جمال يا مثال الوطنية»، ولذلك فإن أى تعديل سوف تطلبه أم كلثوم وملحن هذه القصيدة الموسيقار رياض السنباطى سوف ينفذه الماحى فوراً!.. وإلا!!.

* * *

وبطبيعة الحال.. ورغم ريادة محمد مصطفى الماحى فى مجال شعر الفصحى.. إلا أنه لم يكن ليوجد بيننا فوق هذه الأوراق لولا كتابته هذه القصيدة لأم كلثوم وذلك وفقًا لما ارتضيناه من منهج سابق وقد طبقناه مع جميع شعراء أم كلثوم.. عندما كنا نختتم هذا الحديث بقبس من السيرة الذاتية..

فقد ولد شاعرنا محمد مصطفى الماحى فى مدينة دمياط فى عام ١٨٩٥.. وتلقى تعليمه فى مدارسها، ثم عُين رغم حداثة سنة بعد اجتياز إحدى المسابقات بوظيفة فى ديوان الأوقاف.. وظل يرقى بهذه الوظيفة حتى نال من خلالها العديد من المهام، وقد عين بعدها مراقباً عاماً بوزارة الأوقاف كما اختارته حكومة العراق فى عام ١٩٣٧ لتنظيم الأوقاف بها، بناء على ترشيح من الحكومة المصرية.

وفى ميدان الأدب اختير الماحى وكيلاً لرابطة الأدب العربى فى عام ١٩٣٣.. بعدها أصدر ديوانه الأول فى عام ١٩٣٤.. وهناك من المؤرخين ومن النقاد من الذين يرون أن الماحى تأثر كثيراً فى أشعاره بالمتنبى وأبى العلاء وابن زيدون والبهاء زهير.. هذا وقد طبع ديوانه والذى شمل كل إنتاجه فى عام ١٩٥٧ عن دار الفكر العربى.

١٤ أحمد فتحى
شاعر الكرنك

عندما بدأنا أولى محاولاتنا للبحث عن معلومات تدل إلى عالم الشاعر الكبير أحمد فتحى.. أخذت أسمع الكثير من الحكايات عن هذا الشاعر الذى مات وحيداً فى أحد فنادق القاهرة بعدما عذبه الشعر والحب والحياة!.

وكانت أولى الخيوط البيضاء التى دلتنى إلى عالم هذا الشاعر الكبير قصيدته «الكرنك» والتى شدى بها الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب... حتى أننى كثيراً ما سمعت عنه مقترنا بقصيدته الكرنك، وقد صار من يومها «شاعر الكرنك»!.

وبعد طول بحث عثرت على هذا الشاعر وعلى كلمات رأيتها خير مفتاح له ولشخصيته ولأشعاره العذبة..

ولقد ارتبطت هذه المحاولات بقصيدته الجميلة «قصة الأمس» التى شدت بها أم كلثوم فى عام ١٩٥٨، من تلحين الموسيقار الكبير رياض السنباطى.

إن لأحمد فتحى كما لغيره من الشعراء الكبار قصصاً وحكايات مع سيدة القصيدة العربية أم كلثوم.. سوف نتوقف عند بعضها، خاصة ما ارتبط بقصيدة «قصة الأمس»، وذلك من بعد أن نعيش مع الكلمات نفسها.. ونبحث عن التغييرات التى أدخلتها أم كلثوم على هذه القصيدة إن وجدت!.

* * *

مع إشراقات شهر فبراير من عام ١٩٥٨.. نقلت الاذاعة حفلاً كبيراً لأم كلثوم تغنت فيها بقصيدة «قصة الأمس».. والتى تقول كلماتها:

أنا لن أعود إليك ... مهما استرحمت دقات قلبى
أنت الذى بدأ الملامة ... والصدود وخان حبى
فإذا دعوت اليوم ... قلبى للتصافى لن يلبى
كنت لى أيام كان الحب لى ... أمل الدنيا ودنيا أملى

حين غنيتك لحن الغزل ... بين أفراح الغرام الأول
وكنت عيني، وعلى نورها ... لاحت أزاهير الصبا والفتون
وكنت روحي، هام في سرها ... قلبي ولم تدرك مداه الظنون
وعدتني أن لا يكون الهوى ... ما بيننا إلا الرضا والصفاء
وقلت لي إن عذاب النوى ... بشرى توافيقاً بقرب اللقاء
ثم أخلفت وعوداً ... طاب فيها خاطري
هل توسمت جديداً ... في غرام ناضر؟

فغرامي راح يا طول ضراعاتي إليك
وانشغالي في ليالي السهد والوجد عليه

كان عندي وليس بعدك عندي ... نعمة من تصوراتي ووجدي
يا ترى ما تقول روحك بعدي ... في ابتعادي وكبريائي وزهدي
عش كما تهوى قريبا أو بعيداً ... حسب أيامي جراحا ونواحا ووعودا
وليالي ضياعا وجحودا ... ولقاء ووداعاً يترك القلب وحيداً
يسهر المصباح والأقداح والذكرى معي ... وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي

يا لذكراك التي عاشت بها روحي على الوهم سنينا
ذهبت من خاطري إلا صدى يعتادني حينا فحينا

قصة الأمس أناجيها وأحلام غدي ... وعيوني الليل يخبو نورها في دمي
وجراح مشعلات نارها في ... وأماني حسان رقصت في معبدي
وجراح مشعلات نارها في مرقدي ... وسحابات خيال غائم كالأبد

أنا لن أعود إليك مهما استرحمت دقات قلبي
أنت الذي بدأ الملالة والصدود وخان حبي
فإذا دعوت اليوم قلبي للتصافي لن يلبي

* * *

وبالرجوع إلى الأوراق التي نشرت بها هذه القصيدة خاصة إلى كتاب «اعترافات شاعر الكرنك» .. وجدنا نوعاً من التطابق فيما تغنت به أم كلثوم وكلمات القصيدة التي

كتبها الشاعر الراحل أحمد فتحى إلا فى بعض الألفاظ التى غيرتها أم كلثوم والملحن رياض السنباطى..

وعلى سبيل المثال ففى البيت الذى غنته أم كلثوم والتى تقول فيه:

فـغـرامـى راح يـا طـول ضـراعـاتـى إلـيـه

كان فى أصل ما كتبه أحمد فتحى:

فـغـرامـى راح يـا طـول غـرامـى إلـيـه

وقد غيرت أم كلثوم بذلك كلمة «ضراعاتى» بدلاً من كلمة «غرامى».

وفى البيت الذى تقول فيه أم كلثوم:

ولـيـالـى ضـيـاعـاً وجـحـوداً ولـقـاء ووداعـاً يـتـرك الـقـلـب وحـيـداً

كان فى الأصل:

ولـيـالـى ضـيـاعـاً وجـحـوداً وعـنـاء يـتـرك الـقـلـب وحـيـداً

حيث استبدلت أم كلثوم كلمة «عناء» التى كتبها الشاعر بكلمتى «ولقاء ووداعاً»!.

وبخلاف ذلك لاحظنا أن أم كلثوم قد كررت الأبيات الأولى التى قال فيها الشاعر:

أنـا لـن أعـود إلـيـك مـهـمـا
اسـتـرحـمـت دقـات قـلـبـى
أنـت الـذى بـدأ المـلالـة
والـصـدود وخـان حـبـى
فـإذا دعـوت الـيـوم قـلـبـى
لـلـتـصـافـى لـن يـلـبـى

وهذه الأبيات لم يكررها الشاعر فى نهاية قصيدته كما فعلت أم كلثوم حين تغنت بها.

* * *

هذا عن القصيدة.. فماذا عن الشاعر وعن ظروف اختيار أم كلثوم لكى تغنيها فى عام ١٩٥٨.. بعدما أخذ أحمد فتحى يراسل أم كلثوم بقصائده الجديدة منذ أن تغنى

بقصائده الموسيقار محمد عبد الوهاب، من قبل هذا التاريخ بسنوات على حد قول الشاعر الراحل صالح جودت!؟!.

ومما يقال بشأن هذه القصيدة أيضا.. أن أم كلثوم قد اختارتها بعدما نشرها أحمد فتحى فى جريدة الأهرام.. وهذا القول يؤكده أيضا صالح جودت فى كتابه عن «شاعر الكرنك» حيث حكى لنا تفاصيل لقائه مع أم كلثوم بعدما خذله عبدالوهاب بعد أنشودة الكرنك، عندما رفض أن يغنى له قصيدة «البحيرة»، فاتجه يومئذ إلى أم كلثوم ينتقم بها من عبدالوهاب، وبعث إليها بأكثر من قصيدة(١).

ويضيف صالح جودت: ولكن أم كلثوم خذلته هى الأخرى فى ذلك العهد، عهد الشباب الأول.. ثم ها هى ذى تعود فى أيامه الأخيرة فتغنى له هذه القصيدة العذبة.

ويسترد شاعرنا كل ما فقد من أمل ويحسب أن القدر قد ابتسم له بعد طول عبوس، ويبعث إلى أم كلثوم بقصيدة أخرى فلا تستجيب له هذه المرة، فيعاود الكرة مع عبدالوهاب، ولكن أبواب عبدالوهاب تقف صماء أمام طلبه.

أما نصيبه المادى من هذه الأغنية فلا يزيد على خمسين جنيها، ينفقها فى غمضة عين، ويعود إلى حانته ليغرق همه فى الكأس، ويستسلم لموجة قاتلة من اليأس.

ويؤكد صالح جودت أن أم كلثوم قد شدت بقصيدة «قصة الأمس». قبل رحيل صاحبها بسنتين فقط.. إذ توفاه الله فى عام ١٩٦٠! وكان آنذاك يقيم فى غرفته بأحد فنادق القاهرة.. عندما أحس أنه متعب مكدود، ويحاول أن يظفر بأحد من أصدقائه الأطباء فلا يجد منهم أحداً.

ويصبح صباح حزين.. ففى الساعة العاشرة من الصباح يصل الطبيب فيجد أن رحمة الله بشاعرنا قد سبقته فى ساعة مجهولة من الليل. ليلة الرابع من يوليه عام ١٩٦٠.

* * *

ولقصيدة «قصة الأمس» فى حياة صاحبها قصة أيضا.. عاشها من قبل أن تفصح عنها أم كلثوم.. وقد دون طرفاً من هذه القصة الأديب محمد محمود رضوان فى كتابه

(١) شاعر الكرنك ـ أحمد فتحى حياته وشعره ـ صالح جودت ـ كتاب الهلال.